الفرزدق

٦٤١ م - ٧٣٢

ان الفرزدق صخرةٌ عاديّةٌ
طالت ؛ فليس تنالها الاوعالُ !
(الاخطل)

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

الاخطل والفرزدق وجرير اشهر شعراء الامويين ، ومن اشهر شعراء العرب على الاطلاق . مثلوا عصرهم وبيئتهم ، كما مثلوا الثقافة العربية الخالصة اصدق تمثيل . فوجب ان يحلّهم دارس الادب المحلّ الاول في ذاك العصر الانتقالي الوسيط بين الجاهليين والعباسيين ، بين الادب العربي المحض والادب المولّد نتيجة الثقافات المتباينة . اما الاخطل فقد تقدّم لنا فيه ابحاث مستفيضة[1] . واما جرير فسنخصّه بدرس قريب ، ان شاء الله . واما الفرزدق فهذا هو :

حياته

نشأته

١ - قبيلته

ابو فراس همّام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال . . . ابن مجاشع بن دارم من بيوتات تميم . كان جدّه صعصعة من أشراف قومه في الجاهلية . اشتهر بمآثر بالغ فيها الرواة ، كما بالغ الفرزدق في الفخر بها . وهي انه لما اشتدّ

---

١) في الروائع ج ٣ (١٩٣٦) ، و ٣ (١٩٣٩) ، و ٣ (١٩٤٠)

الجدب ، في بعض السنين ، على بني تميم ، وفشا الجوع فيهم ، عمد بعضهم الى وأد بناتهم ، اي دفنهنّ حيّات ، ساعةَ ولادتهنّ ؛ فقام صعصعة يفتدي هذه الموؤودات ، حتى جاء الإسلام وقد اشترى « ثلاثين موؤودة. »[1] وكان ابو الفرزدق من سراة قومه كذلك ، عُرف بالكرم والمعروف . وكان أعور . وفد على النبي وأسلم ، وتوفي في اوائل خلافة معاوية . ودُفن في المقرّ من كاظمة البصرة . وكان الفرزدق يعظّم قبره[2] ، ويجير من استجار به ، جرياً على تعظيم « البيوت » ، او القبور ، في الجاهلية[3] .

في هذه الأسرة الشريفة ، الفخور ، وُلد همّام في حدود السنة الثمين للهجرة ، (٢١ كانون الاول ٦٤٠—٩ كانون الاول ٦٤١) ، على التقريب . وله اخ أسنّ منه اسمه هُمَيم ، ولقبه الأخطل ، قال الشعر ولكنه لم يبلغ شأوَ اخيه . وتوفي قبله ، فرثاه الفرزدق[4] . وله اخت اسمها يجنّى اكثر جرير من هجائها وهجاء الفرزدق بها . وامّ الفرزدق لينة بنت قرظة الضبيّة[5] ، اخت الملاء بن قرظة الشاعر ، وكان الفرزدق يقول : « انما اتاني الشعر من قبل خالي ! »[6] . وقد خلط بعض المعاصرين بين امّ الفرزدق هذه وجدته ، امّ ابيه ، وهي ليلى بنت

---

١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (de Goeje) ٢٨١ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ : ٣٦١ — اصبحت هذه الثلاثين ثمانمائة ، بل اربعمائة ، في رواية الاغاني (١٩ : ٥٣) ، كما أصبح وأد البنات عادةً شاملةً بين العرب في نظر بعض « المؤرخين ». قلنا : واذا كان ذلك كذلك ، فكيف حُفظ نسل العرب متنابياً على كرّ الأجيال ؟ !

اما الفرزدق فقد اكثر من الفخر بهذه المأثرة ، ومن قوله فيها :

وجدّي الذي منع الوائدات ، وأحيى الوئيدَ ، فلم يوأد !

٢) اطلب ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي ، وهي الطبعة التي نشير اليها عادةً) ص ٤٢ ، ١٦٢ ، ٢١٠ ، ٦١١ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٧٥٩

٣) اطلب الاب لامنس : الحجارة المؤلّهة وعبادتها عند العرب الجاهليين . في المشرق ٣٨ [١٩٤٠] ٢١

٤) الديوان ٩٦

٥) الاغاني ١٩ : ٢

٦) ابن قتيبة : الكتاب المذكور ، ٢٦٦—٢٦٧ ؛ الاغاني ١٩ : ٤٦

حابس[١] ، فخالوا ان « في شعر الفرزدق ما يرجّح ان اسم امه ليلى »[٢]. وهو انما يعني بليلى امّ ابيه لا أمه .

اما « الفرزدق » فلقب غلب عليه منذ صغره ، ومعناه « الرغيف الضخم »[٣] ، أُلقّب به لجهامة وجهه ، وضخامة قسماته ، وما كان فيه من اثر الجدري . ولعلّ اباه سمّاه الفرزدق باسم دهقان الحيرة ، لانه كان يشبهه « في تيهه وأبّهته ».[٤]

مولده – منازل قومه

واما مولد الفرزدق فالبصرة ، على ما في معجم ياقوت[٥] . وكان قومه قد نزلوا ارضها ، زمن تأسيسها سنة ٦٣٥ . الّا انهم ظلّوا على بداوتهم ينتشرون من أرض العراق الأسفل الى اعالي نجد واطراف اليمامة . وعلى هذه البداوة المحكّمة بالحضارة بعض الشيء نشأ شاعرنا ؛ وعليها بقي طول حياته ، غير متّصل بالحضر الّا الماماً . يهجو صناعاتهم[٦] ؛ ويتنصّل من استعمال دراهمهم[٧] ؛ ولكنه لا يتردّد في الاستكثار منها واختيار كبارها[٨] ، اذا وُهبت له . يرعى غنم قومه صغيراً[٩] ، ويهنأ بعيره بيده كبيراً[١٠] . يجوب اطراف المملكة الاموية على ناقته من البصرة الى المدينة ، الى مكة ، الى اليمن ، الى البحرين ، الى فلسطين ، الى دمشق ، الى الرصافة ، متأنساً بوحش القفر ، عائشاً حياة ادلّائه ورُوّاده[١١] . ولكنه لا يتردد في ركوب

---

١) الاغاني ١٩ : ٣

٢) عبدالله اسماعيل البستاني : شرح ديوان الفرزدق ٢ : ب

٣) الكلمة فارسية الاصل ، معربة عن بَرْزَدَه ؛ راجع ادّي شير : الالفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٩٩ – قلت : ولا يزال العامّة من باعة الخبز في عصرنا ينادون : « برازق » على نوع من الزلّوطة يُصنع في بعض الجوامع .

٤) الاغاني ١٩ : ١١–١٢ . وقد تكون القصة موضوعة في سبيل التزلّف الى الفرزدق .

٥) ياقوت : معجم الادباء (Margoliouth) ٧ : ٢٥٨

٦) كصناعة الملاحة ، الديوان ٨٦

٧) الديوان ٢٢٠

٨) الديوان ١٤٨

٩) الديوان ٥١٢

١٠) الاغاني ١٩ : ٢٥

١١) وكان اذا ضلّ به الدليل مجاء فاقذع ، الديوان ٨٤١

السفن بدجلة وشطّ العرب ، وان كان يفضل الصحراء برمالها على هذه الطريق المائوجة[1] . يرتاح الى سكنى البادية ، في الدهناء خاصّة ، فيتخلص من متاعب المجتمعات الحضرية ، ولكنه لا يحجم عن نزول المدن ، اذا دُفع الى ذلك رغبةً او رهبةً . وقد عرفنا له دارًا ذات بابين[2] في البصرة ، هدمها الحارث بن عبدالله ، عامل ابن الزبير (٦٨٤–٦٨٦)[3] . كما عرفنا له بئرًا ببطن السيدان نازعه عليها احد بني مرة بن عباد فهجاه ، واحتجّ بان له على ملكيتها كتابًا وشهودًا[4] .

اول شعره

يؤخذ من اقوال الرواة ان الفرزدق نظم الشعر يافعًا . وكان له من جهة خؤولته استعداد فطري للشعر ، ومن مفاخر آبائه ، وتيهه وصلفه ، مادّة لا تنضب ، ومن مروياته الشعر القديم وايام العرب واخبارها أمثلةٌ جديرة بالاحتذاء . فكان اول ما نظم قطعة فيها الفخر ممزوجًا بالنفس القصصي ، وهما من ميزات الشاعر في جميع منظوماته . وذلك ان امّه كانت ترسله في رعاية غنم لها . فاغار عليه ذئب ، فأخذ كبشًا . وهرب الفرزدق الى الحيّ فلامته امّه ، فقال من قصيدة :

وما كنتُ مضياعًا ، ولكن همّتي سوى الرعي ، مظلومًا ، واذ انا يافعُ ! (٥

ويقول الفرزدق نفسه انه كان يهاجي شعراء قومه في خلافة عثمان (٦٤٤–٦٥٦) وهو غلام . فكان قومه يخشون معرّة لسانه منذ يومئذ[5] . حتى اذا كان يوم الجمل ، وقدم عليّ البصرة بعد تلك المعركة : سنة ٦٥٧ : وفد عليه غالب ابو الفرزدق ، ومعه ابنه ، فقال : «ان بنيّ هذا من شعراء مضر فاسمع منه فقال : « علّمه القرآن ! »[6]

---

١) الديوان ٦٢٦ ، ٨٧٥

٢) الديوان ٧٨٧

٣) الديوان ٧٢٨

٤) الديوان ١٠٧–١٠٨

٥) الديوان ٥١٢–٥١٣ ؛ ابن سلّام : طبقات الشعراء (Hell) ٧٦–٧٧

٦) الاغاني ١٩ : ٦

حياته العائلية والقبيلية

ازواجه : النَّوار

كان الفرزدق مزواجاً مطلاقاً. يضطرب في عاطفته كما يضطرب في ميله السياسي - لا يكاد يخلص لامرأة ، ولا تكاد امرأة تصبر على اخلاقه . يعيش مع زوجته مدّة فيملّها او تملّه ، فيطلّقها ، او تهرب منه فتقدمه الى طلاقها . وهو ابدًا طامح العين ، دائم الفسق والفجور . ذكر من نسائه ، في الشعر الذي وصل الينا ، اثنتي عشرة امرأة . أشهرهنّ النَّوار صاحبة القصة المتناقلة في كتب الأدب . وكان قد تزوّج قبلها بعددٍ من النساء ، منهنّ واحدة اسمها مُنذاة بنت ثعلبة بن دودان ، توفيت قبل حادثة النوار ، كما يُستخلص من قول الشاعر[1]. اما هذه الحادثة فخلاصتها ان النوار بنت أعيَن بن صعصعة كانت ابنة عم الفرزدق ، وليس لها رجل اقرب منه ، فكان وليّها . وكانت قد تزوّجت ورُزقت ولـدًا[2]. ثم لا نعلم ما حلّ بزوجها أطلّقها ام مات عنها ، فعادت الى قومها . وخطبها رجـل من دارم ، وقيل من أميّة[3] ، فرضيته وارسلت الى الفرزدق ان يزوّجها منه . فجمع الفرزدق قومه في مسجد بني مجاشع وخطب فيهم قائلًا: « تعلمون اني وليّ النَّوار ، واشهدكم اني زوّجتها من نفسي. »

فنفرت منه لما تعرف من سوء اخلاقه ، ولجأت الى مكّة لائذة بعبدالله بن الزبير ، وهو يومئذٍ واليها يدّعي الخلافة ويقرّ له بها اهل الحجاز وفريق من اهل العراق. وكان ذلك حوالى السنة ٦٨٥ . فنزلت على امرأته امّ هاشم خولة بنت منظور ابن زبّان[4]. فهجا الفرزدق مَن حملها الى الحجاز ، ومدح ابن الزبير[5] . ثم لحق بها فنزل على حمزة ابن « الخليفة » ، فمدحه ومدح اباه بالخلافة[6]. فكانت شفاعة

١) الديوان ٦٠٥

٢) نقائض جرير والفرزدق (Revan) ٨٠٣

٣) الاغاني ٨ : ١٨٦

٤) الاغاني ٨ : ١٨٦ ، ١٩ : ١٠٧ ؛ الديوان ١٥٩ ، ١٨١ ، ٦٠٣ ، ٨٧٣

٥) الديوان ١٠٤ ، ١١٠ ، ٢٨٦

٦) النقائض ٨٠٤ ؛ الديوان ٥٧٠.

امرأة ابن الزبير انجع من شفاعة ابنه . قال الوالي الى النوار ، واحضر الفرزدق فقال : « ما حاجتك بالنوار ، وقد كرهتك ؟ كن لها اكره وخلِّ سبيلها . » فناظ ذلك الفرزدق ، وخرج وهو يقول : « ما أمرني بطلاقها الا ليثب عليها ! » وبلغ القول ابن الزبير ، وكان حديدًا ، على قول صاحب الاغاني ، فاشتدّ غضبه على الفرزدق . ثم خرج يريد البيت الحرام ، فألفى الفرزدق بباب المسجد عند الباعة . فاخذ بعنقه فغمزها حتى جعل رأسه بين ركبتيه .[1] واخذ يعيّره هرب قومه من قريش في الجاهلية . فراح الفرزدق مغضباً . ولم يلبث ان سيّر ابياناً يفتخر فيها على قريش ، ويهدّد ابن الزبير :

فان تغضبْ قريش ، ثم تغضب ، فـان الأرض ترعاها تميمُ.
هم عددُ النجوم ، وكل حيّ سواهم ، لا تُعدّ له نجوم.
أعبدالله ، مهلًا عن اذاتي ! فاني لا الضعيف ولا السؤوم.

فاصابت الابيات موقعها من ابن الزبير. فاستدعى النوار وقال: « ان شئتِ فرّقت بينكما وقتلته فلا يهجونا ابدًا ، وان شئتِ سيّرته الى بلاد العدوّ » . فقالت : « لا اريد واحدة منهما » . ثم تدخل في الأمر نفر من تميم . فصالح الوالي بينها ، وزوّجه اياها على عشرة آلاف درهم أدّاها عنه سلم بن زياد ، وكان في حبس ابن الزبير . ورجعا راضيَين من مكة ، وهما عديلان في الحمل. والفرزدق يقول : « خرجنا متباغضَين ورجعنا متحابَّين . »[2]

ولعلّ الفرزدق نزل ، في هذه الرحلة ، بأُناط ، من منازل بني يربوع . فاضافه جرير. وكان قد لجّ الهجاء بينه وبين البعيث المجاشعي من قوم الفرزدق. فاتاه جرير شاكيًا من البعيث معتذرًا اليه عن هجائه ، وانشده قصيدة اعجبت النوار ، وكانت تسمع من ورائها ، في قُسَيطيط صغير ، فقالت : « قاتله الله ! ما ارقّ منسيبته وأشدّ هجاءه ! » ، فتوقّع الفرزدق نشوب الهجاء بينها منذئذٍ.[3]

بيد ان الاتفاق بين الفرزدق والنوار لم يدم طويلًا ، وهي انما زوّجته على

---

١) الاغاني ٨ : ١٨٩

٢) الاغاني ٨ : ١٨٩ — ١٩٠

٣) النقائض ١٢٦

كره، فكانت دائمة التذمر والشكوى. وكان يضربها، فتتنف لحيته[1] وتشتمه، وتستغيث، فلا يغيثها احد خوفاً من لسانه، حتى ادركت الشفقة ابن عم لها فساعاتها، فهجاه الفرزدق واقذع.[2] واراد ان يزيد في تكايتها فتزوج عليها امرأة من اليرابيع اسمها رُهيمة بنت غُنيم، لم تلبث ان نفرت منه فهجاها وهجا امها وطلقها.[3] وتزوج حدراء بنت زيق من نصارى بني شيبان، فماتت قبل ان تُزف اليه.[4] وكان قد فضلها على النوار واكثر من مدحها تشفياً وتكاية، فاستعانت عليه النوار بجرير.[5]

وظلت المشارّة بينه وبين النوار حتى اقنعته بتطليقها وبذلت له مالاً، فرضي. فأبت الا ان يُشهد الحسن البصري، ففعل. ثم تدم ندماً رافقه طويلاً، وله في ذلك شعر سائر.[6] وتوفيت النوار قبله فحضر جنازتها، وهو في نحو الثمانين، وصلى عليها الحسن البصري.[7]

وقد ذكروا من أزواج الفرزدق امرأة من بني يربوع من النمر بن قاسط اسمها جهيمة. ونحن نرى انها رهيمة نفسها المذكورة سابقاً.[8] واخرى من بني

---

١) الاغاني ١٩: ١٢، الديوان ٤٨٦

٢) الديوان ٨١٢

٣) الاغاني ٨: ١٩٦، ١٩: ١٦؛ الديوان ٢:١

٤) الاغاني ٨: ١٩٣، ١٩: ١٨-١٩؛ الديوان ٥٢٢

٥) النقائض ٨٠٦-٨٠٧

٦) الديوان ٢٦٢، ومنه الابيات المشهورة:

ندمت ندامة الكسعيّ، لما غدت مني مطلّقة نوارُ!
وكانت جنتي، فخرجت منها، كآدم حين لجّ به الضرارُ.
وكنت كقابض الماء عمداً فاصبح ما يُغبّ له النهارُ.
ولا يوفي بحبّ نوار عندي، ولا كلفي بها، الّا اعتجارُ.
ولو رضيت يداي بها، وقرّت، لكان لها على الغدر الخيارُ؛
وما فارقتها شبعاً، ولكن رأيت الدهر يأخذ ما يُمارُ.

٧) الديوان ٥٧٧، ٥٧٨؛ الاغاني ١٩: ٤٧

٨) الديوان ٨٤٥؛ راجع الاغاني ٨: ١٩٦ - وفيها البيت نفسه في هجو حماته وهو:
ان الغسيلة كانت لي، ولابنتها، مثل المرابة بين النمل والندم.

عباد بن ضبيعة[1] . وواحدة اسمها سويدة[2] . وظبية بنت دلم بن الهثهاث تزوجها بكاظمة في شيخوخته[3] ، وهجا اباها[4] . وفي الاغاني انها ظبية ابنة حالم من بني مجاشع نفرت منه الى المهاجر الكلابي والي البحرين[5] . قلنا : ولعلها تصحيف ظبية بنت العجاج المجاشعي المذكورة في الديوان[6] والتي امهرها أبان بن الوليد البجلي . وذكر له امرأة زنجية هي ام ابنته مكية[7] . وكانت من ضرائر النوار[8] .

اولاده

لم يرزق الفرزدق اولادًا في شبابه[9] ، فعيرته النوار ذلك[10] ، وخافت عليه ظبية انقطاع النسل[11] . ثم رزق عددًا من البنين والبنات سمّاهم اسماء غريبة أشهرهم لَبطَة — وكان يقول الشعر — وسَبطَة وخَبطَة ورَكضَة ، من النوار .[12] وبناته خمس او ستّ منهنّ مكية بنت الزنجية . وتوفي من بنيه اثنان في كهولته فرثاهما[13] ، وواحد صغير قبل وفاته بايام[14] . على انه لم يكن برًّا باولاده ، ولا يظهر انه أحبّهم الحبّ الوالدي الحقّ ، فلم يحبّوه ، وقد شكا عقوق كبيرهم في آخر حياته[15] . وانقطع نسل الفرزدق بحفيده أتين بن لبطة .

---

١) الديوان ٣٦٣

٢) الديوان ٣٠

٣) الديوان ١١٤ ، ٣٨٣ ، ٥٠٦

٤) الديوان ٨٨٠

٥) الاغاني ١٩ : ٣٠

٦) الديوان ٣٠ ، ٣٣٠ ، ٥٠٦

٧) الديوان ١٨٣ ، ٨٨٠ ؛ الاغاني ١٩ : ٣٠

٨) الاغاني ١٩ : ٣٣

٩) الديوان ١٧٣

١٠) ابن قتيبة : الشعر ٣٦٣

١١) الديوان ٢٧٠ ، ٧٦٤ ، ٨٨٥ ؛ الاغاني ١٩ : ١٢–١٣ ؛ وفي الاغاني ان له ولدًا اسمه حنظلة ١٩ : ٣٤ ؛ الديوان ١٢٤

١٢) الاغاني ١٩ : ٤٥

١٣) الديوان ١٢٤ ؛ الاغاني ١٩ : ٣٣

اهتمامه بقبيلته

وكان الفرزدق، على جفاف عاطفته واهماله الاعتناء بخاصته، وافرَ التعصب لقبيلته، شديد الفخر بآثرها، دائم الانتباه لحقوقها، مستعدًّا للحفاظ عليها، والدفاع عنها لدى ارباب السلطان، كما سنرى. يحتجّ على معاوية حتى التهديد بشأن ميراث الحُتات، ويشكو الى الوليد وسليمان ويزيد معاملة بعض وُلاتهم. يلجأ اليه قومه في رفع غرامة عنهم فيتكلم بلسانهم، وتستعيذ امرأة فقيرة بقبر ابيه راجيةً ان يُعاد ابنها من بعث السند، فيكتب الى تميم بن زيد القيني، أمير البعث، فيرجع الجندي الى امه.[1] يسمع، وهو بعزفات، ان قومه خلعوا طاعة سليمان، فيدافع عنهم، ويردّ التهمة[2]؛ ويأتيه انّ فريقاً من قومه قُتلوا في بعث ابن الأشعث فيرثيهم مفتخراً[3]. ويعاتب ابن الزبرقان بن بدر حين زوّج ابنته غير كفء لها.[4] ويتجاوز ذلك الى الشؤون البسيطة فيحكمه الناس في قسمة دار، فيشير بما يرى، حتى اذا خالفوا اشارته هجاهم[5].

موقفه من ارباب السلطان

على عهد معاوية (٦٦١-٦٨٠)

كان الفرزدق لسان قومه في حضرة السلطان دفاعاً واحتجاجاً، واقراراً وخضوعاً. بدأ مهنته، وهو في الثلاثين من عمره، فقدم في وفد التميميين على معاوية، من العراق الى الشام؛ ومعهم الحُتات[6] بن يزيد المجاشعي، احد اعمامه. فخرجت جوائزهم من لدن الخليفة. وأصيب الحُتات بمرض في دمشق، فتوفي. فأمر معاوية بجائزته ان تُردّ الى بيت المال. فدفع الفرزدق قومه ونزقُ الشباب فنظم

١) ابن خلكان: ك. م. ٢: ٣٦٠-٣٦١؛ الديوان ٩٤، ١٩١
٢) النقائض ٢٦٦
٣) الديوان ٤٦١
٤) الديوان ١٤١
٥) الديوان ٤٨٥
٦) وفي الاغاني ١٩: ٢٧: الحباب، وهو تصحيف.

قصيدةً يتهجم فيها على معاوية ، ويهدده ، ويفتخر بآبائه ، مفضلًا اياهم على آباء الخليفة من قُضي وعبد شمس . قال ، وكأنه يأسف على ايام الجاهلية[1] :

أبوك وعمّي ، يا معاويَ ، أورثا تُراثًا ، فيحتاز التُراثَ أقاربُه ؟
فما بال ميراث الخُتات أكلتَه ! وميراث حربٍ جامدٌ لك ذائبه !
فلو كان هذا الدينُ في جاهلية عرفتَ مَن المولى القليلُ حلائبه !
وكم من أبٍ لي ، يا معاويَ ، لم يكن ابوك الذي من عبد شمسٍ يناسبه ! (٢

الشاعر وزياد بن ابيه (٦٧٠-٦٧٣)

فلما بلغت القصيدة زياد بن ابيه ، عامل معاوية على البصرة منذ السنة ٦٦٥ ، وعلى البصرة والكوفة (٦٧٠—٦٧٣) غضب على الشاعر[2] . فاختفى هذا مذعورًا . وكان زياد يوالي في اقامته بين المِصرَين . فاذا نزل الكوفة هرب الفرزدق الى البصرة ، واذا رجع الى البصرة ، انتقل الفرزدق متخفيًا الى الكوفة . حتى بلغ زيادًا ان الفرزدق هجا زهدماً الفقيمي ، صاحب شرطته[4] ، وهجا بني فقيم وبني تهشل[5] ، وبني منقر ، فاستعدوا عليه الوالي[6] . فشدد في طلبه . فهرب الفرزدق

---

١) الديوان ٤٦ ، ٥٦ ؛ وراجع الطبري : تاريخ الرسل والملوك (de Goeje) ٢ : ٦٦-١٠٨

٢) تكون هذه فجة الشاعر في مخاطبة الخليفة ، سليل قريش ، ثم يأتي بن شرّاح الديوان مَن يشرح قول الفرزدق في هجو باهلة والفخر عليها :

أباهلَ ، اين منجاكم اذا ما ملأنا بالملوك وبالقباب !

فيقول : « اي كنّا في عدد الملوك بني قريشًا وهم الملوك ! » (كذا ! في الديوان ص ٢٦) وهل يكون أبعد من قريش عن فكرة الفرزدق اذا ذكر الملوك ، وهو القائل في قومه :

ونحن شربنا الكبش المراض دماءنا شفتها وذو الداء الذي هو ادنفُ (الديوان ٥٦٣)

وهو القائل ، في مكة ، لابن الزبير ، عندما كان يدعى له بالخلافة :

فان تغضبْ قريشٌ ثم تغضبْ فان الارض ترعاها تميمُ !
لهم عدد النجوم ، وكلّ حيّ سواهم ، لا تُعد له نجومُ !

(الاغاني ٨ : ١٨١)

٣) راجع A. Schaade, *Al-Farazdak*. in *Encyclop. de l'Islam*, II, 64

٤) الديوان ٦٢٤

٥) الديوان ٢٤٩

٦) ابن قتيبة : ك . م . ٢٦٦

خائفاً ، مرعوباً ، متشرّداً في القفار ، يتزل ببعض احياء تميم فلا يجيرونه خوفاً من زياد[1] ، ويمرّ ببني هاجر فيطعمونه ولا يحلونه ، وبني لا يجيرونه دابة ، فيهجوهم[2] ؛ ويجيره بنو مُرّة ، وبكر بن وائل ، فيمدحهم[3] . وهو ابداً قلق مضطرب[4] ، يعرض له أسد في بعض المفاوز فيفرق منه ، ولكنه يراه « اهون من زياد جانباً ».[5] وتبلغ الابيات زياداً ، وكأنه يشفق عليه ، فيشيع ان لو اتاه الفرزدق مستجيراً نادماً لأجاره وأعطاه . فيخاف الفرزدق

ان يكونَ عطـاؤه أدامَ سوداً ، او مُحدرجةً سُـرا ، [6]

فيقصد المدينة لاجئاً الى واليها سعيد بن العاص[7] (نيسان ٦٦٩–٦٧٥) ، لا مروان بن الحكم ، كما في بعض روايات الاغاني[8] وما نُقل عنها ؛ لأن مروان كان في تلك الأثناء والياً على مكة (٦٦٨–٦٧٣) ولم يل المدينة الّا مرتين اولاهما قبل سعيد بن العاص (٦٦١–٦٦٩) وقبل ان يغضب زياد على الفرزدق ، وثانيتهما بعد سعيد (٦٧٥–٦٧٧) اي بعد وفاة زياد (ت ٦٧٣) فلا يمكن ان يكون لجأ اليه الفرزدق ، وهو والي المدينة . كما اننا نستبعد ان يكون مروان في مجلس سعيد ، اذ يمدحه الفرزدق بقوله :

ترى الشُمّ الجحاجح من قريش ، اذا ما الامر في الحدثان عالا ،
قياماً ينظرون الى سعيد كأنهم يرون به هلالا .[9]

فيعاتبه مروان ، اذا ما خرجا ، ويقول : « لم ترضَ ان تكون قعوداً حتى جعلتنا قياماً . . . »[10]

---

١) الديوان ٦٥٠
٢) الديوان ٢٦٤
٣) الديوان ٦٥٠ ، ٢٥٦
٤) وله مقاطع كثيرة في ذكر هربه واضطرابه ، في الديوان ٢٢ ، ٦٥ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٥ ، ٥٧٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٥ ، ٧٦٣ ، ٧٧١ ، ٨١٨ ، ٨٢٨
٥) الديوان ٢٢١
٦) اي قيوداً وسياطاً ؛ الديوان ٢٢٧
٧) الديوان ١٨٣
٨) الاغاني ١٩ : ٢٥ ، ٤٢
٩) الديوان ٦١٨
١٠) الاغاني ١٩ : ٢١

ولما الفرزدق تابع رحلته من المدينة ، بعد أن أمّنه سعيد بن العاص واعطاه . فانتقل الى مكة ، وعليها مروان بن الحكم . فسار فيها سيرته في المدينة ، متردّدًا الى الحانات وبيوت اللهو[1] ، وهي كثيرة في الحرمين ، اذ ذاك . حتى غضب عليه مروان وطرده ، كاتبًا له في رقعة بمائتي دينار الى بعض عمّاله . فخشي الفرزدق ان يكون في الرقعة شرّ . فدخل على مروان ورماها قائلًا :

مروان ، ان مطيتي محبوسة ترجو الحباء ، ورحلها بيأس ؛
وأتيتني بصحيفة مختومة يخشى عليّ بها حباء النرجس ؛
ألقِ الصحيفة ، يا فرزدق ، لا تكن نكدًا ، كسئل صحيفة المتلمّس ! [2]

فضحك مروان وقال : « ويحك انك اميّ لا تقرأ . فاذهب بها الى من يقرأها ، ثم ردّها حتى اختمها . »

كل هذا يتلاءم مع مختلف الروايات ، اذا ما جعلنا مروان على مكة في هذه الاثناء ، يطرد الفرزدق منها ، لا من المدينة . اما تأجيل الشاعر ثلاثًا ، فالذي فعله عمر بن عبد العزيز ، لا مروان ، كما سيأتي . فخلط الرواة بين الحادثتين . وقد يكون مروان نفاه عن المدينة في وقتٍ آخر ، زمنَ ولايته الثانية مثلًا (٦٧٥–٦٧٧) بعد وفاة زياد . وليس ما يمنع . لأنّ قدمات الفرزدق الى الحجاز كانت كثيرة ، ومناقراته ومفاسده وافرة كذلك .

وفي مجلس سعيد بن العاص ، في المدينة ، اجتمع الفرزدق بالحطيئة ، وهو شيخ ، وبكعب بن جعيل ، شاعر تغلب ، قبل الأخطل ، فأقرّ له الحطيئة بالشاعرية .[3]

اما نهاية امره مع زيد فنأخذه من حديث نسب الى الفرزدق نفسه . قال بعد ان ذكر طرد مروان له :

« فخرجت اريد اليمن حتى اذا صرت بأعلى ذي قير ، وهو طريق اليمن من البصرة ، فاذا رجل مقبل . فقلت : من اين وضح الراكب ؟ قال : من

---

١) الديوان ١٨٠ ، ٣٥٥ ؛ الاغاني ١٩ : ٢١ ، ٢١

٢) الديوان ٤٨٣ – اما الابيات التي تورد على لسان مروان فتراها منحولة .

٣) ياقوت : معجم الادباء ٧ : ٢٥٨

البصرة. قلت: فما الخبر وراءك ؟ قال: أتانا ان زياداً مات بالكوفة. (قال) فنزلت عن راحلتي فسجدت. وقلت: لو رجعت فمدحت عبيدالله بن زياد، وهجوت مروان ابن الحكم فقلت:

وقلت، باعلى ذي قيّ، مطيّتي، امثل في مروان وابن زياد ؛
فقلت : عبيدالله خيرهما لنا وادناهما من رأفةٍ وسداد ! (١)

على انه لما بلغ الفرزدق ان مسكيناً الدارمي رثى زياداً، هجاه وهجا المتوفى معاً(٢). ثم اطمأنت به الحال(٣). فعاد الى العراق سنة ٦٧٣ .

وبعد ذلك بنحو عشر سنوات، رى الفرزدق في الحجاز من جديد يحادث الحسين بن علي بشأن قدومه على العراق، قبل مقتل الحسين باربعة ايام.(٤)

الشاعر وآل الزبير

ولا نعرف ما كان موقفه من ولاة العراق بعد زياد، وان يكن قد مدح ابنيه عبدالله(٥) وسلماً(٦) . الّا انه لم يخلُ من ميل زبيريّ . فقد مدح مصعباً حين تشيّعت له تميم وربيعة(٧) ؛ وهجا عبدالله بن عمير الليثي، حين ارسله ابن الزبير لقتال النجدية باليحرين، فانهزم(٨) ؛ ومدح عبدالله بن الزبير وسمّاه خليفةً حين قصده الى مكة في شأن النّوار(٩)، كما مدح ابنه حمزة(١٠). وكان الشاعر قد بايع واليه على البصرة، عبدالله بن الحرث، حين خلع البصريون سلطة الامويين، وكتبوا بالبيعة الى ابن الزبير. الا ان جميع هذه المدائح نفعيةٌ، لا إخلاص فيها،

١) الاغاني ١٩ : ٣٥-٣٦
٢) الديوان ٣٤٦، ٤١٣
٣) الديوان ٦٦
٤) الاغاني ١٩ : ٤٠-٤١
٥) الديوان ١٦٦
٦) الديوان ٦٦٠، ٧٢٥ – وقد رثاه ايضاً ٣٢٧
٧) الديوان ٦٠٠
٨) الديوان ٥٨٦
٩) نقائض جرير والفرزدق ٤٠٨
١٠) الديوان ٥٧٠، ٦٥٩

شأنه في امثالها. وها هو لا يحجم عن هجاء مَن مدحهم ، ولا سيما بعد اتخذالهم ، فيستميهم الملحدين ، ويلقب عبدالله بن الزبير — مَن كان يدعوه خليفة — «بكذّاب مكة» ، فيقول ذاكرًا عبد الملك وانتصاره على الزبيريين:

فالارض لله ولّاها خليفته ، وصاحب الله فيها غير منلوب ،
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذّاب مكة من مكر وتخريب. (١

ولعلّه بدا منه شيء من الانحراف عن الزبيريّين ، في اثناء تسلّطهم على العراق ، او قد يكون جرير — وهو مشهور بالنعرة الزبيرية — او احد اشياع جرير ، اغرى بالفرزدق والي البصرة ، اذ ذاك ، الحارث بن عبدالله بن ربيعة الأزدي (٦٨٤–٦٨٦) فهدم داره مرّتين . وهو ما يُستخرج من قوله في احدى النقائض ، مشمتاً بني كليب بهدمها:

أبي قُسَيٍّ من كليبٍ هجوتُه أبو جهضم تعلو عليَّ مراجلُه ؟
أحارثُ ، داري مرّتين هدمتها ؛ وكنتَ ابن أختٍ لا تخاف غوائلُه ! . .
. وقلت لهم : صبرًا ، كليبُ ، فانّه مقامُ كفاظٍ لا تنمّ حوامله ؛
فان تهدموا داري ، فان أرومتي لها حسبٌ لا ابن المراغة نائلُه ! (٢

وكأنّ الوالي اراد استدراك الأمر قبل تفاقمه ، فشاء ان يقتصّ من جرير السنّ بالسن والعين بالعين ، ويهدم داره. فصاح جرير محتجًا مخاطبًا الوالي نفسه :

أحارثُ ، خُذ مَن شئتَ منّا ومنهم ودعنا نعش عدًا تُعدُّ فواضلُه !
فما في كتاب الله تهديمُ دارنا بتهديم ماخورٍ خبيثٍ مداخلُه ! (٣

بعد انتصار المروانيين: على عهد عبد الملك (٦٨٥–٧٠٥) والوليد (٧٠٥–٧١٥)

لما انتهى عبد الملك من فتنة آل الزبير سنة ٦٩١ ، وخلصت الخلافة لبني مروان ، اضطرّ قوم الفرزدق الى التسليم بالأمر الواقع . واذا بالشاعر يتزلّف الى ولاة الامويين في العراق ، يمدحهم ويعتذر اليهم عن مواقفه السابقة ، متنصّلًا منها جهده ، شاتمًا مَن كان قد مدحهم بالأمس ، وهو على إيجاس دائم واضطراب

١) الديوان ٢٥
٢) الديوان ٢٣٨ ، ٢٤٦
٣) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ٤٨٥

ظاهر ، شأنَ المذنب اذا تاب ولم تخلص توبته . وكان اول اتصاله ببشر بن مروان ، اخي عبد الملك ، ووالي البصرة والكوفة (٦٩٢–٦٩٣). بيد انه لم يجسر على مواجهته ، فارسل مَن انشده مقطعاً في مدحه[١] ، حتى رضي عنه بشر واستقدمه . فانقطع اليه مدّةً ومدحه[٢] . ثم رثاه بقصيدة مؤثّرة[٣] . ورثى ابنه عبد الملك . وكان له في حضرته مساجلات مع الشعراء . وفي ولايته اجتمع الفرزدق بالأخطل ، ولم يكونا قد تعارفا من قبل ، فسجد كلّ منهما للآخر[٤] . وعند بشر اصدر الأخطل حكمه المشهور على الفرزدق وجرير ، وكان قد مرّ على تهاجيهما بضع سنوات .

وكما خاف الشاعر بشرَ بن مروان ، أول الأمر ، خاف الحجّاج ، وهذا اشدّ بطشاً ، واعظم صولةً ، واطول يداً ، وأفسح ملكاً . وليَ العراق كلّه مدة عشرين سنة (٦٩٤–٧١٤) . وكان الفرزدق قد هجاه ، اول ولايته ، مهدّدًا المروانيين بالرحيل عن بلادهم[٥] . حتى اذا رأى بطش الحجّاج بالعراقيين ، تملّكه الذعر ، فأقبل يعتذر اليه مصرّحاً بخوفه واضطرابه . ويمدحه فيُسرف في مدحه ، مهوّلا الملائكة لنصرة جيوشه المظفّرة ، معترفاً بحق الأمويين ، مشيدًا بذكرهم ، ولا سيما عبد الملك الذي لم يكن يجسر فيفد عليه[٦] . اذا ارسل اليه صكّ اعترافه بالامويين ، منقلباً على ابناء الزبير[٧] :

اذا لاق بنو مروان ، سَوْرَ ، لديه انفُ اليعفورِ عضابا ،
صوارمُ شُجْنَ الاسلامَ منه ، بوكّلَ وقعُهنّ بنى أروابا ؛
جنّ لقوا بمكّةَ مُحصَنيها ومسكنَ يحتوين حمى الضرابا ؛ (٨

---

١) الديوان ٢١١
٢) الديوان ٢٨٦
٣) الديوان ٢٦٨
٤) الاغاني ٧ : ١٦٦
٥) الديوان ١٦٠
٦) الديوان ٢٥ ، ٨٦ ، ١٢٧ ، ٢٩٦ ، ٤٢٥ ، ٥١٥ ، ٥٩٣ ، ٦١٤
٧) الديوان ٢٢–٢٣
٨) مسكن : اسم موضع قريب من أروانا على نهر دجيل . وفيه كانت المعركة الحاسمة بين عبد الملك ومصعب ابن الزبير سنة ٦٩١

فلم يتركن من أحدٍ يحلّي وراءه بكذبٍ إلّا أنابا
الى الاسلام ، او لاقى ذميماً جا ركن التبّة والحبابا.(١)

وقد يكون الحجّاج ، قبل ذلك ، حبسه شهرًا ، فشفع له الحكم بن ايوب الثقفي ، ابن عم الحجّاج وصهره وعامله على البصرة[٢].

ثمّ مدح الفرزدق عمّال الحجّاج ، في اخلاصهم له ، كابن عمّه الحَكَم المذكور[٣] ؛ ويزيد بن عمر الأسيدي ، رئيس شرطة البصرة[٤] ؛ والجرّاح بن عبدالله الحكمي ، عامله على البصرة ايضًا[٥] ؛ وهجا من شقّ منهم عصا الطاعة كعبد الرحمن بن الأشعث وهميان بن عدي السدوسي[٦] . كما هجا الخوارج ، ومَن كان يحرب من قتالهم[٧] ، كخالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد[٨] .

ورثى اخا الحجّاج وابنه ، وقد توفيا في يوم واحد او في اسبوع واحد[٩] . ثم رثى الحجّاج نفسه[١٠] .

على انه لم يبايع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك (٧١٥–٧١٧) ، عدوّ الحجّاج ، حتى اقبل الفرزدق يمدح الخليفة الجديد ، ويهجو الوالي الأمين في قبره[١١] . ولما عُوتب في ذلك قال : « نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه . فاذا تخلّى عنه ، انقلبنا عليه . »[١٢] وهو خير ما يُقال في تذبذب الفرزدق السياسي ،

---

١) ذميماً : اي ميتة مذمومة .
٢) الديوان ٦٨٦ ، ٦١٧
٣) الديوان ٣٣ ، ٦١٤
٤) الديوان ١٩٨ – وقد غضب الفرزدق مرة لأنه أبطأ في الاذن له فهجاه ، الديوان ٦٠١
٥) الديوان ٢٢٨ – وله مقطعات في رثائه ، وقد قُتل في اذربيجان على عهد هشام ؛ الديوان ٧٨١ ، ٨٠٦
٦) الديوان ٨٦٧
٧) الديوان ٢٨٦
٨) الديوان ١٧٣
٩) الديوان ١٩٠ ، ٤٦٤
١٠) الديوان ٢٦٥ ، ٥٢٩
١١) الديوان ٦١١
١٢) الاغاني ١٩ : ٥٠

واضطراب موقفه من ذوي السلطان.

وللفرزدق مدائح كثيرة في الوليد بن عبد الملك (٧٠٥—٧١٥)[١]. ولكنه لم ينشده اياها وجهاً لوجه، انما كان يرسلها بواسطة عمّاله، او مع الوفود، اذا صحّ ما تتفق المصادر على القول به من ان الفرزدق لم يتصل باحد من الخلفاء قبل سليمان. ومن هذه المدائح قصيدتان تستحقان الذكر، واحدة يشكو فيها عاملاً يشدّد في جباية الفرائض ولا يقبلها الّا دراهم[٢]، وواحدة يمدح فيها الوليد بتحويله كنيسة القديس يوحنا في دمشق الى الجامع الاموي المشهور[٣]. ولعلّ الفرزدق تأثّر فيها بقصيدة النابغة الشيباني في الموضوع نفسه[٤].

---

١) الديوان ٨٧، ٢٠٩، ٢٤٩، ٦٨٣، ٧٠٢، ٧٦٧ — وفي الديوان، ص ٧٠٨، قصيدة عُنونت باسمه في مدح الوليد بن عبد الملك، وهي في مدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك، كما يظهر من النصّ، فاقتضى التنبيه.

٢) الديوان ٢٥٣ — ولا بأس بايراد بعض ابيات منها لأهمّيتها في الدلالة على طريقة جباية الفرائض، اذ ذاك، شهرًا شهرًا؛ وكيف ان العامل كان يرفض قبولها أحيانًا، ويُصرّ على استيفائها دراهم، مشدّدًا في الطلب، مهدّدًا المكلّفين بالسياط، حتى يدفعهم الى الاستدانة بالربا، وهو حرام، فيعرّضهم لدخول جهنّم باقتراف هذا الاثم، وهم يأتونه مرغمين خوفًا على ظهورهم من وقع السياط. قال:

امير المؤمنين، وانت تُغني ... بعدل بديك ادواء الصدور،
فكيف بعامل يبغي علينا، ... يكلّفنا الدراهم في البدور؟
وانّى بالدراهم؟ وهي منّا ... كرافع راحتيه الى النّبور!
اذا سُقنا الفرائض، لم يُردها، ... وعدّ عن الشويهة والبعير.
اذا وضع السياط لنا ضمارًا، ... اخذنا بالربا سَرَقَ الحرير!
فادخلَنا جهنّمَ ما اخذنا ... من الارباء، من دون الظهور.
فلو سمع الخليفة صوت داعٍ ... ينادي الله: هل لي من مجير!
واصوات النساء مرنّناتٍ ... وصبيانٍ لهنّ على الخجور،
اذًا لأجابهنّ لسان داعٍ ... لدين الله ينضاب، تصور،
امين الله، يصدع حين يغضي ... بدين محمد، وبه أمور!

٣) الديوان ٧٦٧ — ولجرير قصيدة في الموضوع نفسه، ديوانه ٤٩١

٤) H. Lammens, *Le calife Walîd et le partage de la mosquée des Omayyades à Damas.* [*Etudes sur le siècle des Omayyades.*] p. 377

وقد مدح الفرزدق ابني الوليد عمر[١] والعباس[٢]، ولعله اتصل بهما.

في خلافة عبد الملك زار الفرزدق الحجاز بضع مرات: منها واحدة على عهد ابن الزبير بشأن النوار، كما ذكرنا. وثانية في ولاية أبان بن عثمان بن عفان على المدينة (٦٩٤–٧٠١). وكان يجتمع في مسجدها مع كُثيّر وابرهيم بن محمد الزُهري يتناشدون الأشعار[٣].

وفي خلافة عبد الملك، او في خلافة ابنه الوليد على الأكثر، حجّ الفرزدق. وكان هشام قد حجّ في جماعة من اهل الشام. فصادف زين العابدين، وانشد الفرزدق ابياته المعروفة. فحبسه هشام في عسفان[٤].

الفرزدق وعمر (٧١٧–٧٢٠)

وفي هذه المدة ايضاً، في ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة (٧٠٥–٧١١) قدمها الفرزدق في سنة مجدبة. فأكرمه عمر، واحسن ضيافته، وتقدّم اليه بان لا يتعرّض لأحد بمدحٍ ولا هجا.[٥]. ثم اختبره فوجده صاحب فجور[٦]. فنفاه عن المدينة واجّله ثلاث ليال. وهي الحادثة التي استغلّها جرير[٧]، بعد ان اشار اليها الفرزدق نفسه[٨]، فقال:

توعّدني فأجّلني ثلاثا كما وُعدت لهلكها ثمودُ[٨]

فاجابه جرير:

فقالك الأغرّ ابن عبد العزيز، وحقنك تُنفى عن المسجد؛
وشبّهت نفسك أشقى ثمودَ، فقالوا: ضللت ولم تهتدِ،
وقد أجّلوا، حين حلّ العذاب، ثلاث ليالٍ الى الموعدِ.

---

١) الديوان ١٧٤
٢) الديوان ٤٢٢، ٥٢٨
٣) نقائض جرير والفرزدق ٥٤٦؛ الاغاني ٨: ١٩٢؛ ١٩: ٣٨–٣٩
٤) ابن خلكان: الكتاب المذكور ٢: ٣٦٤–٣٦٥؛ الاغاني ١٩: ٤٠–٤١
٥) الاغاني ١٩: ٥١؛ الديوان ١٨٥، ٢٦٠
٦) النقائض ٢٩٧
٧) ديوان جرير ١٢٨
٨) الديوان ١٨٥

بيد ان هذا النفي لم يمنع الفرزدق ان يمدح عمر بحسن تقواه وطيب خلقه ، وكرمه ، وشرف اصله. مدحه أوّلاً بمكة ، على اثر وفاة ابيه بمصر[1] سنة ٧٠٣ ؛ ثم مدحه والياً على المدينة[2] ، ثم خليفةً (٧١٧-٧٢٠)[3]. ولكنه لم يحظَ لديه حظوة ماديّة ، اذ كان عمر لا يعطي الشعراء ؛ ولا حظوة ادبية ، اذ كان يفضّل عليه جريرًا.[4]

الفرزدق وسليمان (٧١٥-٧١٧)

اما الخليفة الذي اتصل به الفرزدق اتصالاً وثيقاً فهو سليمان بن عبد الملك (٧١٥-٧١٧). مدحه وليَّ عهد ، فافاض في اجارته لابناء المهلّب ، وشبّهه بالسموأل في الوفاء لجاره[5]. ولمّا ولي الخلافة قصده الشاعر الى الشام. وهو «لولا حبُّه لما غشي

١) الديوان ٦٣٨ – وللفرزدق قصيدة في رثاء عبد العزيز ، الديوان ٢٢٥ ، كنّها الناشر ، عبدالله اسماعيل الصاوي ، في رثاء عمر ابنه – على الرغم من انه توّجها بقوله : «ولما قدم الفرزدق الشام بلغه موت عبد العزيز فقال » – وكأنه ، اي الناشر ، في هذا العنوان بعد سطرين ، اذ عرض له قول الشاعر :

ان الارامل والايتام قد يئسوا ، وثالثي العرف ، اذ لاقام المجرُ :
أن ابن ليلى بارض النيل أدركه ، وهو يسراعُ الى معروفه ، القدرُ .

فاضطرّ الى القيام «بتحقيق تاريخي» أسفر عن قوله معلّقًا : «لم يشر احد من المؤرخين الى انّ عمر بن عبد العزيز مات بمصر . وحكوا انه مات بخناصرة او دير سمعان من عمل معرّة النعمان ، وانه دفن بدير سمعان ، ووافقهم ياقوت . وعلى هذا فيكون جملة بارض النيل متعلقة بالارامل واليتامى او محلة لاقام المجر . » (كذا ، ص ٢٢٥ ، الحاشية ١) ولعلّ ما دفع الناشر الى هذا الوهم ، فالى هذا التمحّل في التخريج النحوي ، ان الشاعر يكني عن عبد العزيز «بابن ليلى». وفي ظن الناشر ان ابن ليلى هو عمر بن عبد العزيز ، كما ورد غير مرة في قول الفرزدق (الديوان ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٦٣٤ . . . .) قلت : ولن يكبر الشاعر ممدوحه عمر بن ليلى فاذا فعل ذلك تجوّزًا لان ليلى كانت جدّة ام ابيه عبد العزيز ، لا أنّه ، على ما ورد في شرح الديوان نفسه ، ص ٢٢٩ ، من طبعة الناشر نفسه ، حيث جاء في الحاشية ٢ : «ابن ليلى يعني عمر بن عبد العزيز ، وام عبد العزيز ليلى بنت الاصبغ بن زيّان الكلبية . » فيكون ابن ليلى «الحقيقي» – اذا صحّ التعبير – عبد العزيز ، واما ابنه عمر فهو ابن ليلى المجازي !

٢) الديوان ٢٦٠
٣) الديوان ٢١٦
٤) النقائض ٢٩٧
٥) الديوان ١٥-٢٢

هذه البلاد البيضة »[1] . فكان اول خليفة وفد عليه . ثم تعددت فيه قصائده[2] ، وكلها تنمّ عن تعلّقه بشخص الخليفة ، الذي يسمّيه « المهدي » ويكاد يهبط عليه الوحي[3] ، كما تنمّ عن تفاؤله باستقامة الأحوال في المستقبل . ثم مدح ابنه أيوب فشبّهه واباه بسليمان وداود .[4]

ويُستنتج من بعض الحوادث ان الشاعر كان يرافق الخليفة في بعض تنقلاته . رافقه الى الحجّ مع عدد من الشعراء . فلما كان بالمدينة ، تلقوه باربعمائة أسير رومي . فأمر الخليفة بان تُضرب رقاب البعض . وتقدّم الى الفرزدق في ذلك . فجبن الشاعر ، ونبا سيفه[5] . فلهج الناس بالحادثة ، وتهكّم جرير بالفرزدق تهكماً طويلاً . فدافع هذا عن نفسه موفّقاً بعض التوفيق ، اذ نقض قول جرير :

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم .[6]

بقوله :

فلا تقتل الأسرى ؛ ولكن فكّهم اذا اثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ ؛
فهل ضربة الروميّ جاطةُ لكم ابًا عن كليب او أبًا مثل دارمِ ؟
كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتها ؛ ويقطعن احياناً مناطَ التمائمِ .[7]

ولما مات سليمان ، رثاه الفرزدق بابيات اربعة هي الوحيدة في رثاء الخلفاء في ديوانه الضخم .[8]

في خلافة يزيد (٧٢٠-٧٢٤)

وقد مدح الفرزدق يزيد بن عبد الملك (٧٢٠-٧٢٤) . وكان يفد عليه في

---

١) فحبُّك أغشاني بلادًا بنيةً إليَّ ، وروميًا بسَانَ أقشرا
(الديوان ٣٤٢)

٢) الديوان ٣٤٠ ، ٣٢٤ ، ٤١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٥ ، ٦٥٤

٣) الديوان ٦٢٥ ، ٦٥٤

٤) الديوان ٨-٣

٥) الديوان ١٨٥ ، ٢١٣ ، ٢٦١

٦) ديوان جرير ٥٦٣

٧) الديوان ٨٥٨

٨) الديوان ٦٢٣

الموقّر ، من أرض البلقاء ، على رغم الثانين ، والشيب الشامل[1] ، والرياح الهوج تنثر الثلوج احياناً[2] ، فيمدحه مدحاً يضاهي سائر مدائحه الاموية .[3]

وكان له حوادث مع اكثر عمّال يزيد ، او عمّال سلفائه ، وأشهرهم آل المهلّب ، وعديّ بن أرطاة الفزاري ، وعمر بن هبيرة .

اما آل المهلّب فكانوا من مشهوري الولاة والقوّاد في الدولة الاموية . أصلهم من أزد عُمان . حارب ابوهم المهلّب بن ابي صُفرة الخوارج وانتصر عليهم . وولي الجزيرة لابن الزبير سنة ٦٨٦ . فمدحه الفرزدق[4] . ثم هجاه على عهد بشر بن مروان .[5] وكان ابنه يزيد والياً على خراسان (٧٠١-٧٠٤) ، وعلى الجزيرة نحو السنة ٧١٠ . الى ان ارتاب الحجّاج في اخلاصهم للدولة ، فحبسهم ، وصادر املاكهم . فاحتالوا حتى هربوا من حبسه ، لاجئين الى سليمان بن عبد الملك ، وهو وليّ عهد ، فآمنهم واستحصل لهم عفواً من اخيه الوليد . فمدحه الفرزدق ، كما تقدّم ، ومدح آل المهلّب لتخلّصهم من الحجّاج[6] . ولما بويع لسليمان ، عيّن يزيد بن المهلّب والياً على البصرة والكوفة سنة ٧١٥ ، فمدحه الفرزدق ، ومدح اخاه مروان . ثم انتقل يزيد الى جُرجان ، فاستدعى الفرزدق ، وارسل اليه باربعة آلاف درهم يتجهّز بها . فقبض الفرزدق المال وهرب الى الكوفة[7] . وبعد وفاة سليمان ، عيّن عدي بن أرطاة والياً على البصرة ، فخلع يزيدُ بن المهلّب طاعة الخليفة الجديد ، وثار مع اتباعه . ولما وصل عديّ لمحاربته ، هجاه الفرزدق واشاد بيزيد[8] . ووُفّق ابن المهلب في ثورته فدخل البصرة عنوةً سنة ٧١٩ . فهجا الفرزدق

---

١) الديوان ٤٣٧ ، ٨٨٨

٢) الديوان ٨٣٩

٣) الديوان ١٦٤ ، ١٦٨ ، ٢٦٢ ، ٤٣٧ ، ٥٤٣ ، ٦٨٦ ، ٨٢٨ ، ٨٨٨

٤) الديوان ١٤٩

٥) الديوان ١٠ ؛ اطلب ايضاً ٢٥٢ : يمجوهم بكونهم ملّاحين . — وله قصيدة بذيئة في هجاء امرأة المهلّب ؛ ص ٦٠١

٦) الديوان ١٧ ، ٤٦ ، ١٩٢ ، ٢٧٤ ، ٨١٦

٧) الديوان ٢٤٢ ؛ الاغاني ١٩ : ١٦

٨) الديوان ٨١٢-٨١٤

عدياً من جديد[١] ، وهجا بني عمرو بن تميم الذين انهزموا في البصرة امام دارس مولى ابن المهلب[٢].

ثم مات عمر بن عبد العزيز ، فخلع ابن المهلب طاعة يزيد بن عبد الملك. فسير عليه اخاه مسلمة بن عبد الملك في جيش جديد . فمدحه الفرزدق ، منقلباً على آل المهلب[٣] . حتى اذا رأى موقفهم ثابتاً ، حاول ان ينقلب على انقلابه ، متزلفاً الى يزيد بن المهلب. فدخل عليه يريد ان ينشده مديحاً. فلما رآه قال يزيد: « اغرب في نار الله ، فوالله اني لا اقدر باي قتلة اقتلك ! » فخرج خزيان[٤] . ولما ظفر مسلمة ، وقُتل يزيد سنة ٧٢٠ ، جعل الفرزدق يهجوه وأسرته ويهجو دعاتهم[٥] ، ويكفّرهم مفتخراً ، ويمدح مسلمة[٦] ، وهلال بن أحوز قائد البعث[٧] ، ويكثر في مدح يزيد بن عبد الملك بهذا الانتصار كما يُكثر في هجو المهالبة[٨] .

واما عدي بن أرطاة الفزاري فهو الذي ولي البصرة في فتنة ابن المهلب (٧١٧ - ٧٢٠) وليس للفرزدق فيه الا الهجو والانتقاد . ينتقد تنظيمه البعث للخروج الى قتال ابن المهلب[٩] . ويهجوه بانكساره ، كما تقدّم . وهو موقف جدير بالفرزدق ، اذا ذكرنا ما كان بين قومه وبني فزارة ، قوم عدي ، من عداوة قديمة .

وهكذا كان موقف الفرزدق من عُمر ابن هبيرة ، وهو فزاري ايضاً .

---

١) الديوان ٢٢٤

٢) الديوان ٧٧٨

٣) الديوان ٢٠١

٤) الديوان ٨٨١-٨٨٢

٥) كالسبدع الزهراني المُرجئي ، الديوان ٥٠٨

٦) الديوان ٨٠٦

٧) الديوان ٦٠ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ - وله مقطع في رثائه ١٥٥

٨) الديوان ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٦٠ ، ٢٦٢ ، ٤١٢ ، ٥١٦ - وفي ديوان الفرزدق بيتان لا عنوان لها ، يقول ياقوت انها في رثاء يزيد بن المهلب ، وهو لا ينسبها الى أحد . راجع الديوان ١٦٠

٩) الديوان ٥١٦

ولّاه يزيد العراق وخراسان والهند (٧٢١–٧٢٣) بعد ان عزل اخاه مسلمة عن العراق، وعزل ابن عمه عبد الملك بن بشر بن مروان عن نيابة البصرة، وسعيد ابن عمرو بن الحارث عن نيابة الكوفة. فانتقد الفرزدق هذا الترتيب، وهجا ابن هبيرة هجاء مرًّا، متهماً اياه بخفة اليد واختلاس اموال الدولة[1]. فقال مخاطباً يزيد:

امير المؤمنين، وانت والٍ شفيقٌ، لست بالوالي الحريص،
أأطعمتَ العراق ورافديه فزارياً أحَدَّ يدٍ القميص؟
تفيق بالعراق ابو المثنّى، وعلّم قومه أكل القميص!

ثم اخذ يوالي بين مدحه وهجائه، وفقاً لمنافعه[2].

في خلافة هشام (٧٢٤–٧٤٣)

وآخر من اتصل به الفرزدق من الخلفاء هشام بن عبد الملك (٧٢٤–٧٤٣). وكان الفرزدق قد هجاه اميراً[3] وخليفة[4]. فلما استتبّ له الحكم، وفد عليه بقصيدة عامرة، قاطعاً المفاوز المهلكة من العراق الى الرصافة، متجشماً المشقّات على شيخوخته، واصلاً سير الليل بسير النهار، حتى تتعب الناقة فتلتفت ضجرةً لغبة، فيسألها مسكّناً روعها:

إلامَ تلفّتين، وانت خِتني، وخيرُ الناس كلّهم اساسي؟
متى تأتي الرصافة تستريحي من التهجير والدّبر الدوامي؟
ويُلقى الرحل عنك، وتستقيني بمثل الارض والملك الهمام![5]

---

١) الديوان ٤٨٧، ٥٠٨

٢) مدحه في الديوان ٢٨٠، ٤١٦، ٥٧٦ – وهجوه في ٢٨٢، ٤٨٧، ٥٠٨، ٦٤٧

٣) الديوان ٥١

٤) الديوان ٧٨١

٥) الديوان ٨٣٥ – والقصيدة من النقائض، نقض جرير هذا المقطع بقوله:
تلفّت انما تحت ابن قينٍ حليف الكير والنأس الكهام؛
متى تأتي الرصافة تخزَ فيها كخزيك في المواسم كلّ عام!
ديوان جرير – راطلب: فؤاد افرام البستاني: رصافة هشام ورقة الرشيد، في المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ٢٤٤–٢٤٥

وكان خالد بن عبدالله القسري ، والي هشام على العراق (٧٢٤–٧٣٨) قد قبض ، حال وصوله ، على عمر بن هبيرة ، الوالي السابق ، فحبسه واستصفى ماله. فاستال عمر حتى هرب من حبس خالد . فمدحه الفرزدق — وكان قد اكثر من هجائه في ولايته — وعرّض بخالد[1] ، بعد ان هجاه على اثر تعيينه[2] ؛ وقبل ذلك[3] . فغضب خالد وحفظها له . ثم بلغه ان الشاعر هجا « النهر المبارك » الذي شقّه خالد من دجلة[4] ونسبه الى الخليفة . فأرسل الى عامله على البصرة ، مالك ابن المنذر ، ان يحبسه .[5] فوجّه مالك الى ايوب بن عيسى الضبي ، فقبض على الفرزدق وحمله اليه فحبسه ، وقد قارب التسعين[6] . فأخذ في الاعتذار والتنصّل من هجو النهر ، مادحاً معاوية بن هشام[7] ومالك بن المنذر[8] ، واخاه مسمعاً[9] ، وخالداً[10] ، واخاه أسداً[11] . وكأنّ الحبس طال عليه ، فلجأ الى هشام ووجّه اليه قصيدة مع ابنه لبطة يمدحه ، ويشكو من حبسه ، ويدّعي جوار مروان ، جاعلاً الخليفة جديراً بالخلود ، خليقاً بتلقّي الرسالة والوحي[12] . وكان من حسن حظّه ان شفع له سعيد بن الوليد الأبرش . فأمر هشام خالداً ان يخلّيه[13] . فمدح خالداً[14] . واكثر في مدح هشام[15] . وكان جرير قد تظاهر بالشفاعة له لدى أسد بن عبدالله ،

---

١) الديوان ١٤٠

٢) الديوان ١٠٩

٣) الديوان ٢٧٣

٤) الديوان ٦٠١ — وهو في هجاء خالد ص ٢٧٣ ، ٥٦٨ ، ٨٧٤

٥) الديوان ٥٦٩

٦) الاغاني ١٩ : ٢٣–٢٤

٧) الديوان ٨٣٠

٨) الديوان ٢١ ، ٢٢ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٢

٩) الديوان ٦٦٠

١٠) الديوان ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٢٦٥ ، ٨٣٠ ، ٨٣١

١١) الديوان ١٦٨ ، ١٧٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٦

١٢) الديوان ٨٤٦

١٣) الاغاني ١٩ : ٢٤ ؛ الديوان ١٦٥ ، ٥٢٢ ، ٧٥٠ ، ٨٤٥

١٤) الديوان ٥٩٢ ١٥) الديوان ٦٢ ، ٩٦ ، ٥٢٢ ، ٧٨٢ ، ٨٠٨

فاستغرب أسد ، لما كان من المداوة بين الشاعرين ، وقال: « أتشفع له يا جرير ؟ » فقال : « ان ذلك اذلّ له ، اصلحك الله ! »[1]

وكان الفرزدق ذا اتصال بوليّ عهد هشام ، الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، يفد عليه من العراق[2] الى قصر المشتى ، على الأرجح ، فيمدحه منتظرًا انتقال الخلافة اليه[3] . ولكن لم تحقق هذه الامنية . فقد مات الفرزدق ، والوليد ينتظر ان يجيئه البريد بنعي الخليفة الأحول .

ومدح الفرزدق من ولاة الامويين الورد الجنفي[4] ؛ وقطن بن مدركة الكلابي ، والي البحرين[5] ؛ وزياد بن الربيع ، أمير هجر[6] ؛ وأبان بن الوليد البجلي ، عامل خالد القسري على خراسان[7] ؛ وبلال بن ابي بردة ، عامله على البصرة (٧٢٨—٧٣٨) كان يقدم اليه من الدهناء ، في آخر عمره ، وقد صار

مثل النسر امسح واقمًا وافناه من كرّ الليالي ذعافا ، (٨

فيمدحه مستعطيًا مُلحفًا[9] . وآخر من اتصل بـه منهم خالد بن عبد الملك ابن الحارث بن الحكم ، والي المدينة (٧٣٢- ٧٣٥) مدحه في السنة التي توفي فيها الشاعر ، بقصيدة لعلّها آخر مدائحه[10] .

---

١) الاغاني ١٩ : ٤٣ ؛ ديوان جرير ١٧٨

٢) الديوان ٤١٧

٣) ٧٠٩— ويجب ان يصحّح العنوان الموضوع لهذه القصيدة . فقد ورد (ص ٧٠٨) : « وقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك » . وهو خطأ صوابه : يمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، كما يظهر من نصّ القصيدة ، ومن شرحها لابن حبيب . — ومدائح الفرزدق في الوليد ص ٧ ، ٨٤ ، ٤١٧ ، ٥١٠ ، ٧٠٨

٤) الديوان ٧٨

٥) الديوان ٧٠٠

٦) الديوان ٤١٣

٧) الديوان ٦١ ، ٢٧٤ ، ٤٣٠ ، ٥٤٧ ، ٨٧٦

٨) الديوان ٥٣

٩) الديوان ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤

١٠) الديوان ٦٢٢

الفرزدق والعلويّون

اما موقف الفرزدق من العلويين فيُستدلّ من حياته وشعره انه كان فيه على اخلاص فاق اخلاصه لغيرهم من ارباب الاحزاب ، وان يكن لم يجرؤ دائماً على إظهار عاطفته. هذا اذا جاز لنا ان نتكلّم عن الاخلاص بالنسبة الى الفرزدق. كان قومه من ذوي الميل العلوي في الخلاف الناشب بين علي وعائشة اولاً ، ثم بين علي ومعاوية. حتى اذا قدم عليّ الكوفة ، وفد عليه غالب ، والد الفرزدق ، ومعه ابنه ، وهو يافع اذ ذاك . على ان اخوال الفرزدق من بني ضبّة كانوا من حزب عائشة ، فحاربوا جيش عليّ ، يوم الجمل. وهو ما استفاد منه الفرزدق ، في تزلّفه الى الامويين ، فافتخر بأن اخواله حاربوا عدوّهم :

وعشيّة الجمل المجلّل ، ضاربوا ضرباً شؤون فراشه تتريّلُ (١

يقول ذلك زلفى وتقرّباً . ولا سيما بعد ان تحقّق قومه قوّة الامويين ، وشعروا بصولة عمّالهم في العراق ، فارسلوا اليهم الوفود مبايعين. فمدحهم الفرزدق ، وبالغ واغرق حتى كاد يُنزل عليهم الوحي ، ويمسحهم مسحة الهدى والنبوة ، كما قدمنا . ولا يخفى ان اغراقه هذا وايجاسه الدائم من ولاة امية لَمن الادلة على اضطراب ميله وتذبذب موقفه . اما اذا ابتعد عن مركز الولاة ، فاطمئن الى ان يد الامويين لن تطاله ، وعرضت له فرصة ، فانه لا يتردّد في اظهار عاطفته لآل البيت . من ذلك ما روى الطبري والاصبهاني من ان الفرزدق لقي الحسين ابن علي بمكّة في السادس من ذي الحجة — قبل وقعة كربلاء باربعة ايام — وهو يهم بالخروج الى العراق فقال : «يا ابن رسول الله انفس الناس معك وايديهم عليك.» قال الحسين : « ويحك معي وقر بعير من كتبهم بدءوني وناشدوني الله.» وسار الحسين.

ثم لقي الفرزدق عبدالله بن عمرو بن العاص ، وتذاكرا أمر الحسين . فقال عبدالله : ويلك فهلّا اتبعته ! فوالله ليسلكنّ ؛ ولا يجوز السلاح فيه ولا

(١ الديوان ٧١٦

في أصحابه . قال الفرزدق : « فهمت والله ان ألحق به ووقع في قلبي مقالته. ثم ذكرت الانبياء وقتلهم فصدّني ذلك عن اللحاق به .»

ولم يلبث ان ورد الخبر بقتل الحسين في كربلاء . فقال الفرزدق : « فإن غضبت العرب لابن سيدها وخيرها فاعلموا انه سيدوم عزّها وتبقى هيبتها. وان صبرت عليه ولم تتغيّر ، لم يزدها الله الا ذلًا الى آخر الدهر . وأنشد في ذلك :

فإن انتم لم تثأروا لابن خيركم ، فألقوا السلاح واغزلوا بالمغازل!»(١

وكذلك كان موقفه ، في مكة ايضاً ، وقد مرّ على هذه الحادثة بضع وعشرون سنة ، عندما حجّ هشام بن عبد الملك ، واضطرّه الزحام الى الانتظار. ووصل زين العابدين ، حفيد علي ، فتنحى له الناس ، حتى طاف واستلم. فسأل احد رجالات الشام: مَن هذا ؟ فاجابه الفرزدق ذاك الجواب الرائع :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحَرَمُ!

ذكر هذا صاحب الاغاني ، وابن خلكان(٢) ، ومن نقل عنهما من مؤرخي الأدب ، موردين القصيدة على طولها في بضعة وعشرين بيتاً. اما ديوان الفرزدق(٣) فليس فيه منها الّا ستة ابيات. ولعلّ الرقابة العباسية حذفت منها ، او لعلّ بعض مريدي العلويين زاد فيها. فقد ذكر صاحب الاغاني بيتين منها نسبهما الى الحزين الكناني في مدح عبدالله بن عبد الملك(٤) ؟ ومهما يكن من أمر فان الفرزدق كان يُعدّ من شعراء العلويين ، وقد يُقرن بأبين ، وكُثيّر ، والكميت(٥).

الفرزدق والشعراء

تمرّس الفرزدق بعدد من الشعراء منذ صباه ، فكان يهاجي شعراء قومه في خلافة عثمان ، وهو غلام ، ولكنه لم يذكر منهم واحداً باسمه. وظلّ على هذه النزعة

---

١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (de Goeje) ٦ : ٢١٨ ؛ الاغاني ١٩ : ٢٤ ، ٤٧

٢) الاغاني ١٩ : ٤٠-٤١ ؛ ابن خلكان : ك . م . ٢ : ٢٦٤-٢٦٥

٣) الديوان ٨٤٨

٤) الاغاني ١٤ : ٧٥

٥) راجع Lammens, *Mo'āwia*, p. 187, n. 3.

في شبابه ، حتى كاد الهجاء يغلب على سائر شعره . وكأنه عرض له ما جعله يتوب عن نهش أعراض الناس ، فأقسم ان يُقلع عن الشعر[1] . ولعله ذكر قول علي ابن ابي طالب لأبيه ، فقيّد نفسه ، وقد تجاوز الأربعين ، وأقام يعالج الآيات القرآنية ليجسمها في ذاكرة لم تتعوّد الّا حفظ الشعر المقذع والأخبار الفاحشة .

وكان الهجاء قد لجّ اذ ذاك ، بين جرير والبعيث المجاشعي ، ونالت شظاياه نساء مجاشع ، فأقبلن على الفرزدق شاكيات مؤنّبات قائلات : « قبّح الله قيدك ! فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلُحيت من شاعر قوم ! »[2] فكنّ المشجّعات على ما كان يصبو اليه . ففضّ قيده ، وقال قصيدة اصاب وشاشها البعيث وهدّد جريرًا[3] . ثم خصّ جريرًا بقصيدة يائية اصابت البعيث كذلك[4] . وكان هذا في عهد الحارث بن عبدالله ، والي البصرة لابن الزبير (٦٨٤–٦٨٦)[5] . اما ما استنتجه بعض ادباء العصر[6] من ان الهجاء لجّ بين الشاعرين ، منذ خلافة معاوية ، محتجين بما ورد في احدى نقائض جرير من ابيات استشهد بها يزيد في خلاف نشب بينه وبين ابيه ، فلا سند له يوثق به . لان جريرًا ، في اولى نقائضه ، وهي اللامية ، يذكر النوار[7] ، ويذكرها البعيث كذلك في نقيضة سابقة[8] ، وقد تقدّم ان النوار لم تُزفّ الى الفرزدق الا على عهد ابن الزبير في حدود السنة ٦٨٥ . وفوق هذا فان جريرًا يخاطب في القصيدة نفسها الحرث ، والي البصرة . اما الابيات التي استشهد بها يزيد فقد قالها جرير في عتاب جدّه ، قبل النقيضة

---

١) الديوان ٦٦٦

٢) النقائض ١٢٦–١٢٧ ؛ وراجع الديوان ٧١٢

٣) الديوان ٧١١ ؛ النقائض ١٢٧

٤) الديوان ٨٩٥ ؛ النقائض ١٦٧

٥) وجاء في النقائض (ص ١٢٧) انه الحارث بن ابي ربيعة المخزومي . على ان الحرث هذا لم يل البصرة ، بل كان على الكوفة مدة اربع سنوات (٦٨٦–٦٩٠)

٦) مثل خليل مردم بك : الفرزدق ، ص ١١

٧) ديوان جرير ٤٦٢

٨) النقائض ١٢٧

بعشرين سنة ، على قول ابن حبيب[1] . ولعله ألحق بها ابيات الهجاء فألف تلك النقيضة اليائية . ثم توالت النقائض واحدة من الفرزدق واخرى من جرير نحو نصف قرن ، حتى وفاة الشاعرين سنة ٧٣٢ . والناس ، من شعراء ومتأدبين ، منقسمون قسمين : فرزدقي وجريري ، يتشاحنون حتى المشارّة والعداوة . وقد دخل الاخطل بين الشاعرين ، في ولاية بشر بن مروان للبصرة (٦٩١–٦٩٢) ، بعد ان مرّ عليها في الهجاء بضع سنوات ، سأله بشر عنها[2] فقال : « الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر . »[3] فهاج الحكم جريرًا ، فبدأ عهد الهجاء بينه وبين الأخطل . اما الفرزدق فشكر للأخطل حكمه ، واخذ يمدحه وقومه ، ويعاونه على هجاء جرير . وظلّ على اخلاصه بعد وفاة الشاعر — وهو امر نادر في اخلاق الفرزدق — فاقام من نفسه شاعرًا للتغلبيين بعد شاعرهم الكبير[4] . كما حفظ التغالبة جميل الفرزدق ، بعد وفاته كذلك ، فاحتفوا بابنه لبطة ، في الحيرة ، وجمعوا له مائة من الابل[5] .

ومن الشعراء الذين اتصل بهم الفرزدق ، قليلًا او كثيرًا ، الحطيئة ، وكعب ابن جعيل ، اجتمع بهما في مجلس سعيد بن العاص ، والي المدينة . فحكم له الحطيئة ، اذ سمع انشاده[6] . وقد يكون لزمه الفرزدق ، بعد ذاك ، فروى له[7] . وفي المدينة كان يجتمع كذلك بكُثيّر ، وبابراهيم بن محمد الزُهري

---

١) ديوان جرير ٦٠١

٢) نقائض جرير والاخطل (طبعة صاوي) ١٩٧

٣) الاغاني ٧ : ١٦٩

٤) الديوان ٧٠٨ – وهو يقول في ذلك :

امسى لتغلب من تميم شاعرٌ يرمي القبائل بالقصيد الأثقلِ ،
اذ غاب كعب بني جميل عنهم ، وتنمّر الشعراء ، بعد الاخطل ؟
يتباشرون بموته ، ووراءهم ، بني ، لم ، قطع الذئاب المرسل .

٥) الاغاني ١٩ : ١٣ ؛ ابن خلكان : ك . م . ٢ : ٢٦٦

٦) الاغاني ٢١ : ١٩٦

٧) Lammens, *Un poète royal à la cour des Omayyades*, in *Etudes sur le siècle des Omayyades*, p. 264

فيتناشدون الاشعار[١]. وفيها كان ينزل على الأحوص ، فيسكران ويسمعان الغناء.[٢] ومن الشعراء الذين أصابهم رشاش من بذاءته مسكين الدارمي، هجاه لانه رثى زيادًا ، كما تقدّم ؛ والطرمّاح الطائي هجاه وهجا قومه.[٣] والأصمّ الباهلي هجاه وقومه ايضاً[٤]؛ كما هجا امرأة شاعرة من نُقيم ، فلم تقصر في هجائه.[٥] وقد اتصل بذي الرمة سمعه ينشد في المِربَد فحكم على شعره[٦] ، ثم لم يلبث ان سرق من ابياته ، كما سرق من شعر الشمردل[٧] ، وابن ميّادة[٨] ، وجميل بن معمر[٩] . وفي المربد كان للفرزدق حلقة خاصّة يجتمع فيها بالراعي وغيره من مريديه.

واجتمع الفرزدق ، في حضرة سليمان بن عبد الملك، بجرير ، وكثيّر ، وعديّ ابن الرقاع. ففضله سليمان عليهم جميعاً في الفخر[١٠]. واجتمع مرةً ثانية في المجلس نفسه بنصيب، ففضل سليمان نصيباً عليه في المدح. فهجا الفرزدق نصيباً[١١]. وعرف ليلى الأخيلية فانشدها وانشدته[١٢].

وفي آخر عهده ، مدح عبدالله بن عبد الأعلى ، شاعر بني شيبان، فأكثر واجاد[١٣]، ذاكرًا فضل شيبان عليه في جابية الجولان.

---

١) الاغاني ٨ : ١٩٢
٢) النقائض ١٠٤٨
٣) الديوان ١٢٥ – ولكن الطرمّاح لم يسكت له ، على ما يظهر في الديوان، الصفحة نفسها.
٤) الديوان ٢٢٢
٥) الديوان ٧١٩
٦) الديوان ١٤٧ – ويظهر ان ذا الرمّة أُعجب به.
٧) الاغاني ١٩ : ٢٢
٨) الاغاني ١٩ : ٦–٢٠
٩) الاغاني ٨ : ١٩٥
١٠) الاغاني ١٩ : ٢٢
١١) ابن خلكان : ك. م ٢ : ٢٦١
١٢) الاغاني ١٩ : ٢٦ – وذلك في حكاية جميلة السرد.
١٣) الديوان ٦٦٦ ، ٧٥٤

وفاته

رزق الفرزدق عمرًا طويلًا تجاوز التسعين في قوله هو[1] ، وبلغ السادسة والتسعين في قول ابن حبيب ، شارح الديوان[2] ، وقارب المائة في قول ابن قتيبة.[3] الّا انه ظلّ قويّ العزم ، بعيد الهمّة ، وان شمله الشيب ، فجعله مهيب الطلعة[4]. امّا وفاته فيتردّد القدماء والمحدثون في تعيينها أهي سنة عشر ومائة للهجرة أم ١١١ ام ١١٢ ام ١١٤[5]. وليس من مبرّر لهذا التردّد في نظر من يطالع الديوان ، فيرى فيه قصيدة قالها الشاعر في مدح خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، والي المدينة[6]. ومعروف ان خالدًا المذكور ولي المدينة مدة ثلاث سنوات ، من السنة ١١٤ الى السنة ١١٧. واذًا فلا يمكن ان تكون وفاة الفرزدق تقدّمت السنة ١١٤ (٣ اذار ٧٣٢ — ٢٠ شباط ٧٣٣). وهي السنة التي توفي فيها جرير كذلك.

واما المرض الذي توفي فيه فهو ذات الجنب ، في قول ابنه لبطة[7] ، او الدُبيلة[8] وهي داء يحدث عنه دمامل . أُصيب في البادية ، فنُقل الى البصرة . وأتى برجل متطبب ، فوصف له ان يُسقى القار الأبيض . فجعل يقول لابنه: «يا بنيّ ، عجّلت لابيك شراب أهل النار[9]». وقبره بالبصرة في مقابر بني تميم[10].

---

١) الديوان ٦٦٦ ؛ وكذلك في الاغاني ١٩ : ٤٦

٢) الديوان ٦٦٣

٣) ابن قتيبة : ك . م . ٢٦٤ . اما زعم المرزباني بانه بلغ ثلاثين ومائة فلا يُعتدّ به .

٤) الاغاني ١٩ : ٣٣

٥) الاغاني ١٩ : ٦ ، ٤٥ ؛ عبدالله العلوي : شرح ديوان الفرزدق : ٨ ؛ خليل مردم بك : الفرزدق ، ص ١٦

٦) الديوان ٦٢٢

٧) الاغاني ١٩ : ٤٤

٨) ابن قتيبة : ك . م . ٢٦٤

٩) الاغاني ١٩ : ٤٦

صفاته واخلاقه

هيئته

كان الفرزدق ضخم التقاطيع ، مجهَّم الوجه مستديره ، صغير القدمين ، غليظاً ، قصيراً[١] . أُصيب بالصلع ، فكان جرير يدعوه « القُرَيد الاصلع »[٢] ، ويميزه « قصر القوائم ».[٣] الّا ان الفرزدق كان يزهو بجماله ، فيصوّر نفسه كالهلال يروق النساء[٤] . وكان يحتال على ما بقي من شعره فيجمعه في ضفيرتين يخضبها بالحنّاء[٥] ، كما يخضب لحيته . حتى اذا شمله الشيب ترك الخضاب ، فكان مهيب المنظر .[٦] وكان يلبس اللباس الفاخر من الديباج والخزّ ، عمل اهل اليمن ، ويعتمّ بعمامة كبيرة ضخمة .

ثقافته

نشأ الفرزدق أمّياً[٧] كأكثر شعراء عصره . ولكنه روى ايام العرب ، ومفاخر قومه خاصّة ، وكثيراً من الشعر الجاهلي والمخضرم ، فكوّن لنفسه ثقافة شفهية لا بأس بها . وحاول ان يحفظ القرآن ، وقد تقدّمت به السنّ ، فقيّد نفسه ، كما قدّمنا . ولكنه لم يحفظ ، على ما يظهر ، الّا حوادث القصص القرآني — واخبر اعلق بالذاكرة من الانشاء ! — اما الآيات نفسها فلم يُحكمها ، وان يكن قد اكتسب حسّاً بصحيح تركيبها . نُقل عن الاصمعي ان الفرزدق سمع رجلاً يقرأ : « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم . » فقال : « لا ينبغي ان يكون هذا هكذا » فقيل : انما هو « عزيز حكيم ».

---

١) ابن قتيبة : ك . م . ٣٨٩

٢) ديوان جرير ٢٤٤ وغيرها .

٣) ديوان جرير ٥٥٩

٤) الديوان ٥٧٢

٥) الديوان ٤٨٩

٦) الاغاني ١٩ : ٢٢

٧) وفي شرح الديوان ما يستنتج منه ان الفرزدق كان عارفاً بالقراءة . جاء في توطئة احدى القصائد : « وجعل الفرزدق يقرأ الكتب . » (ص ١٧٣)

قال: «هكذا ينبغي ان يكون.»[1] وجمع الى ذلك اساطير الجاهليين، وحكايات المفسّرين، فاعتلجت كلّها في ذاكرته القويّة، واندفعت متدفقةً في شعره بترتيب وبغير ترتيب. واذا به يلخّص قصة آدم وحوّا.[2]، ويذكر نوحاً وابنه والطوفان[3]، ويونس واقامته ثلاثة ايام في بطن الحوت[4]، وثمود وعاد والناقة[5]، ويأجوج ومأجوج[6]، وفرعون غارقاً في البحر وراء بني اسرائيل[7]، وابراهيم متأهباً للتضحية بولده اسحق[8]؛ وداود والمرأة التي اعجبته[9]، وابنه سليمان[10]،

١) الاغاني ١٩: ٣٥

٢) الديوان ٧٧١

٣) الديوان ٦١٢، ٨٥٢

٤) الديوان ١٤١، ٦١٧

٥) الديوان ٢٠٧، ٦٢٥، ٧٧١، ٨٥٥، وغيرها كثير.

٦) الديوان ٢٩٦، ٨٣٠

٧) الديوان ٧٧٠

٨) الديوان ٦٧٩، ٨٢١ — وهذان القطعان واقرا الاميّة في تاريخ التفسير الديني. ومعلوم ان القرآن، في ذكر هذه الحادثة لا يسمّي ابن ابراهيم. اما التقليد الإسلامي الحاضر فيقول انه اسماعيل، جدّ العرب، لا اسحق، كما يعتقد اليهود. واما الفرزدق فيدلّ شعره على ان الاعتقاد الجاري بين العرب، حتى العصر الاموي، كان موافقاً للمعتقد اليهودي. ولعلّ فكرة الذبح اسماعيل نشأت في العصر العباسي. وقد يكون بعض متأخري المفسّرين، لما وقفوا على شعر الفرزدق في الموضوع، جعلوه «يصحّح» رأيه متأخرًا فقولوه: «سمعت ابا هريرة يقول على منبر المدينة: الذبيح اسماعيل» (ابن قتيبة: ك.م.٢٩٦) والّا فلم لم يستفد من هذا القول في شعره، وذكرُ «الذبيح اسحق» في قصيدتين من آخر شعر الفرزدق. اولاهما في مدح مالك بن المنذر بن الجارود؛ قالها في حبسه ثانيًا مستجيرًا، وقد أتت عليه تسعون سنة (ص ٦٨٠) وفيها يصرّح باسم اسحق:

اني حلفت بصارعٍ لابنٍ له اسحقَ فوق جبينه المتلولِ

وثانيتهما نظمها في الحبس نفسه مادحاً معاوية بن هشام بن عبد الملك، متنصّلاً من هجو النهر المبارك، قال في الموضوع الذي يهمّنا:

أرجو الدعاء من الذي تلّ ابنه لجبينه، فقداه ذو الانعام،
اسحق، حيث يقول، لمّا هابه، لأبيه حينَ رأى من الأحلام:
أمضي وصدّق ما أُمرتَ، فانني بالصبر محتسباً لخيرُ غلامِ!

٩) الديوان ٤٣٠

١٠) الديوان ٣٠٨، ٦١٧

والسامري[١] ، وحكاية الفيل[٢] ، وامّ عيسى التي يجعلها فضلى النساء[٣] . وهو يجري مجرى الجاهليين في الاعتقاد بالصدى[٤] والزّجر[٥] . ثم يحلف بالراقصات الى منى ، وبالقاصدين كَنَفَي جراء ، وسائر مناسك الحجّ .[٦]

رقة دينه : فسقه وفجوره

بيد ان هذه المسحة من الأثر الديني لم تتجاوز الصبغة السطحية ، فلم تتغلغل في اعماق نفس الشاعر ، ولم تولِه شيئاً من التقوى ولا من خوف الله ؛ وان ذُكر مرةً انه صلّى[٧] وتاب نادماً[٨] ، وان ذُكر عنه انه بكى في المسجد[٩] ، وتأثّر ، في جنازة النوار ، بكلام الحسن البصري ، فقال انه اعدّ لليوم الآخر شهادة ان لا اله الّا الله مذ ثمانين سنة .[١٠] انما كان الغالب عليه الاستهتار ، واطراح فرائض الدين ، واللهو بالآيات لهوَ المستخفّ العابث . وهذه احاديث فسقه وفجوره تملأ ديوانه واخباره ، وتدفع الولاة الى نفيه عن مناطق الحرم . فمن تفصيل مغامراته الفاحشة[١١] ، متستّرًا في بعضها بستار الدين متصنّعاً بصفة الزهّاد ، مستخدماً القرآن في نيل مأربه السافل ، خادعاً ربّ البيت بقراءة سورة الكهف[١٢] ؛ الى ارتياده

---

١) الديوان ٤٥١

٢) الديوان ٨٥٢

٣) الديوان ١٧٠ — ومما يدعو الى الابتسام حماسةُ طابع الديوان ، عبدالله اسماعيل الصاوي ، في احتجاجه ، بلسان الفقهاء ، على رأي الفرزدق هذا ؛ فقد علّق على البيت بكل جدّ : « وهل كانت السيدة مريم فضلى النساء ؟ ذلك رأي الفرزدق . فاما الفقهاء فلا يقولون هذا بل يعتبرونها من فضليات النساء . » (كذا ! ص ١٧٠)

٤) الديوان ٤٨ ، ٦١٧

٥) الديوان ٢١٣

٦) الديوان ٨٢ ، ١٦١ ، ٢٦٥ ، ٦١٧ ، ٨٦٠

٧) الديوان ٢٤٦

٨) الديوان ٧٧٠

٩) الاغاني ١٩ : ٤٧

١٠) الديوان ٥٧٧—٥٧٨

١١) الديوان ٢٥٥

١٢) الديوان ٦٥١

المواخير وبيوت اللهو ، مجاهرًا بالشرب صرفاً[1] ؛ الى اقراره بالزنا في حضرة سليمان[2] ، الى تبذيـه وسفاهته ، وهو فوق الثانين من عمره[3] ؛ الى اصراره على هذه السيرة الخالعة الفاجرة[4] ، ناصحاً مَن كان على شاكلته ان يلتحق بنساء الجنّ فيخلص من دفع المهر والصداق ، وينجو من شرطة الاخلاق[5] ؛ معرضاً عن اضطلاع عميق باساليب الفسق وصغير الفجور.[6] وهو لا يتورّع عن شتم جرير طائفاً بالبيت الحرام[7] ، ولا عن التهكم بتقواه « وتمسكنه »[8] ، وامتناعه عن شرب الخمر[9] ؛ كما انه لا يتحرّج عن تضمين الآيات القرآنية في اهاجيه المقذعة البذيئة[10] ، ولا يُحجم عن ان يشبّه مظاهر فسقه وفجوره ببعض شعائر الحج[11] . ولا يتردّد في ان يسابق الحسن البصري الى الإفتاء في محلـه ، مستندًا الى شعره[12] بدل الآيات والحديث ، ذاهباً في فتاويه ، مذهب الجاهلية ، على قول ابن رشيق[13] ؛ مصرّحاً ، في موقف آخر ، بانه « يعرف سجدة الشعر ، اذا ما عرف غيره سجدة القرآن »[14]

---

١) ابن قتيبة : ك . م . ٢٩٤ — وقد سها جامع الديوان عن نشر هذه الابيات .
٢) ابن خلكان : ك . م . ٢٦٤ ؛ ابن قتيبة : ك . م . ٢٩٧
٣) الديوان ٧٨٣
٤) امّا الزّنا فاني لست تاركه
(الديوان ٨٧٤)
٥) الديوان ٥٨٥-٥٨٦ — اما إمكان الزواج بنساء الجنّ فاطلب فيه : الإمام السّبكي : آكام المرجان في احكام الجان ، مصر ، ١٣٢٦ هـ . ، الباب الموفي ثلاثين : في بيان مناكحة الجنّ ، ص ٦٦-٧٤
٦) الديوان ١٢٠ ، ٢٧٢ ، وغيرها كثير .
٧) الديوان ٤٢٨ .
٨) الديوان ٧٢٦
٩) ابن قتيبة : ك . م . ٢٩٤
١٠) الديوان ٢٨٤ ، السطر ١٠-١١ ؛ قابل بما في سورة البقرة : ٦٣-٦٦
١١) الديوان ٣٠٨ ، السطر ١٢ ؛ الاغاني ١٩ : ٢٥-٢٦
١٢) الاغاني ١٩ : ١٤
١٣) الديوان ٥٧٦-٥٧٧
١٤) الاغاني ١٩ : ٩٨ — يقول ذلك اذ يلومه الناس ، وقد رأوه ساجداً البيت من شعر لبيد .

فلا عجب اذًا ان يرفض القضاة شهادته، وقد جاهر بانه قذف الف محصنة.[1] ولا عجب ان يصمّ الحسن البصري عن سماعه هجاء ابليس، وقد عرف نفسية الفرزدق وبلغ اخلاصه في مثل هذه التوبة. حتى اذا هدّده الشاعر قائلًا: لتسمعنّ او لأخرجنّ فاقول ان الحسن ينهي عن هجاء ابليس. قال: «اسكت فانك بلسانه تنطق!»[2]

ولم يكن الموت نفسه ليدفع الفرزدق الى التوبة النصوح، على رغم توقعه مجيئه[3]، وقلقه عمّا وراء القبر[4]، وما كان يؤمّل من عفو الله ومغفرته. فقد نقل ابن قتيبة[5]، وصاحب الاغاني[6]، انه اعتق بعض عبيده، قبيل وفاته، وارضى لهم بشيء. ولما اشتدّ به النزع، وهم حوله مع اهله، قال:

أروني من يقوم لكم مقامي، اذا ما الأمر جلّ عن العتاب!
الى مَن تنزعون، اذا حشرتم، بأيديكم عليَّ من التراب؟[7]

فقالت جارية له: «نفزع الى الله». فغضب وقال: «اخرجوا هذه من الوصيّة.»

وعن ابنه لبطة، وقد حضر نزع ابيه: «فقلت له: يا ابتِ، قُل: لا اله الّا الله. فجعلت اكرّرها عليه مرارًا. فنظر اليَّ وجعل يقول:

نظلّت تنالى باليفاع كأنّما ورامح غاما وجهةَ الريح راكزُ!

فكان ذا هِجّيراه حتى مات.»[8]

على ان ابن خلكان «يرجو له الجنّة بكرمة تُنسب اليه»، وهي مدحه زين العابدين.[9] بل انه ادخله الجنّة بالفعل، على ذمّة بعض النسّابين، وقد رآه في

---

١) الاغاني ١٩: ٥٠؛ ابن خلكان: ك.م. ٢: ٢٦١-٢٦٢
٢) الاغاني ١٩: ١٤، ٢٢
٣) الديوان ٨٦٥، ٨٦٧
٤) الديوان ٨١٥
٥) ابن قتيبة: ك.م. ٣٦٤
٦) الاغاني ١٩: ٤٤
٧) الديوان ١١٤
٨) الاغاني ١٩: ٤٤ — ومعنى هِجّيراه: دأبُه
٩) ابن خلكان: ك.م. ٣: ٣٦٤

المنام، فسأله: بمَ غُفر لك؟ فقال: بالكلمة التي نازعتها الحسن[1]، اي بهجو ابليس. واما ابو العلاء المعري فلم يذكره في رسالة الغفران.

حسن حديثه وبديهته

ومن نتائج ثقافته الواسعة في ذاك العهد، انه كان كثير الاحاديث، حلو القصص عذب الاسلوب. نعته ابن قتيبة «بالمِنّ المِنّ».[2] ونُسبت اليه احاديث جذّابة السرد، كحكاية ليلى الاخيلية وتوبة بن الحمير[3]، وقصة العذارى المبترات وحديثه لهنّ بحكاية امرئ القيس يوم دارة جلجل[4]، وحديثه مع صاحبة القدح في البصرة. وحكاية عقيلة بنت الضحّاك وابن عمها عمرو.[5]

وكان الى ذلك قويّ البديهة، سريع الجواب، حاضر النكتة لاذعها احياناً. مرَّ يوماً بمجلس بني حرام. فقال له عنبسة، مولى عثمان بن عفّان: يا ابا فراس، متى تذهب الى الآخرة؟ قال: وما حاجتك الى ذاك، يا اخي؟ قال: اكتب معك الى ابي. قال: انا لا اذهب الى حيث ابوك في النار. اكتب اليه مع ويالويه واصطفانوس[6].

وصادف جنازة فقال: ما هذا؟ فقيل: مات ابو الحنساء صاحب البغال. فقال:

ليبكِ ابا الحنساء بغلٌ وبغلةٌ، وغلامُه سوءٌ قد أضيع شعيرها،
وبحرقةٌ مطروحةٌ، وبغسّةٌ، ومقرعةٌ صفراء بالٍ سيورها! (٧)

ودعاباته كثيرة تزداد فكاهةً، في حالتي سكره وعربدته. فهو اذا سمع

---

١) ابن خلكان: ك. م. ٢: ٣٦٥
٢) ابن قتيبة: ك. م. ٢٦٣
٣) الاغاني ١٩: ٢٦
٤) الاغاني ١٩: ٢٦-٢٨
٥) الاغاني ٧: ٥٢
٦) الاغاني: ١٩: ١١
٧) ابن قتيبة: ك. م. ٢٦٣

حماراً ينهق ، شتمه وذكر جريراً ، ناسباً الحمار لبني كلب[1] . واذا مرَّ بكلاب مجتمعة في الطريق ، احدها ذو لون احمر ، سلّم عليها ، وقال :

فما ردّ السلامَ شيوخ قومٍ مررتُ بهم على سكك البعير
ولا سيما الذي كانت عليه قطيفة أرجوان ، في النمور . (٢

ولكنها غالباً ما تتداخلها البذاءة . وقد ظلَّ متصفاً بها حتى آخر حياته ، اذ قال لابنه ، وقد وصف له الطبيب ان يشرب القار الابيض : لقد عجلت لابيك شراب اهل النار !

ومن بديهياته الرائعة جوابه للسائل عن زين العابدين في حضرة هشام:
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

جبنه

وكان الخوف يفعل في الفرزدق ، كما تفعل الحماسة ، في إحضار الجواب السريع والردّ المفحم . روى الاصمعي انه لما قدم يزيد ابن المهلب واسطاً قال لأمية ابن الجعد ، وكان صديق الفرزدق : اني لأحبُّ ان تأتيني بالفرزدق . وكان الفرزدق قد اكثر في عجاء يزيد وقومه أزد عُمان . فلقيه أمية فقال: ما فاتك من يزيد ، اعظم الناس عفواً واسخى الناس كفّاً ؟ قال: صدقت ، ولكني اخشى ان آتيه فاجد البُوابة ببابه فيقوم اليَّ رجل منهم ، فيقول : هذا الفرزدق الذي هجانا . فيضرب عنقي . فبعث اليه يزيد ، فيضرب عنقه . ويبعث الى اهلي فيقتلهم . فاذا يزيد قد صار ارق العرب ، واذا الفرزدق فيما بين ذلك قد ذهب[3] .

وجبن الفرزدق مشهور اكثرت كتب الادب من ذكر نوادره ، كما دلّ عليه شعر الفرزدق نفسه . وكفى بالمقاطع التي قالها في خوفه من زياد شاهداً مقنعاً . فهو اذا تراءى له أسد في القفر ، ذكر زياداً ، فرأى الأسد اهون جانباً منه[4] . واذا

---

١) الديوان ٨٧٤

٢) الديوان ٢١٨ ؛ معاهد التنصيص ٢٢

٣) الاغاني ١٩ : ٢٩

٤) الديوان ٢٢١ راجع ايضاً الصفحات التالية ، وفيها كلها يظهر خوفه من زياد ٢٢ ، ١٥ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٥ ، ٥٧٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٥ ، ٧٦٣ ، ٧٧١ ، ٨١٨ ، ٨٢٨

عرض له ذكر زياد ، وهو «مطمئنّ في الحرم ، بينه وبين البصرة سيل اللوى وهضب التهائم» ، طار نومه واحسّ بالحمّى تسري في عروقه[1] ؛ واذا ارتاد مجلس لهو ، فشرب الخمر ، وسمع الغناء ، ظلّت ذكرى زياد تعوده فتفسد عليه سروره وطمأنينته[2] . فهو دائم الاضطراب ، كأنه يردّد ابدًا :

اذا ذكرت نفسي زيادًا تكمّشت ... من الخوف احشائي ، وشابت مفارقي [3]

وهو موقنه من كبار القوّاد والولاة كالحجّاج[4] ، وخالد القسري[5] . حتى عُرف عنه ذلك فجعل القوم يداعبونه ، ويخوّفونه ليتنادروا عليه . ورآه مرةً شرطيّان ، من رجال الجرّاح بن عبدالله الحكمي ، جالسًا في سكة لا منفذ لها . فقال احدهما لصاحبه : هل لك ان انزعه ! وحرّكا دابتيهما نحوه . فادبر مولّيًا . فعثر في طرف برده فشقّه ، وانقطع شسع نعله . ثم انصرفا عنه . فلما علم انهما هزلا به ، واطمأنت به الحال ، اخذ يشتمهما وأمّيهما[6] . وصال عليه جمله مرةً ، «فرأى الموت» ، واخذ يستغيث بالمارّة[7] . وداعبه الحجّاج في وقعة دير الجماجم فعرض عليه ان يحمل ويعطيه عطاء كثيرًا . فاستعفى قائلًا : اني أخاف ، اذا حملت ، ان ينقطع أصل العطاء ![8] وأمره سليمان ان يضرب عنق أسير ، فارتعشت يده ، واضطرب السيف ، فنبا . فضحك الناس منه . على انه استدرك الأمر بسرعة خاطره ، كما مرّ .[9] الى غير ذلك من الحوادث الدالّة على جبنه الصميم ، وخوفه الدائم . ولا يمكن ان تكون موضوعة لعصبيّة على الفرزدق . فان في شعره ما يعزّزها ويشير إليها ، فوق ما فيه من دلائل التذلّل والتصاغر امام العظماء ، اذا خشي منهم أن يقبضوا

١) الديوان ٧٧٣ ، ٨١٨

٢) الديوان ١٨٠ ؛ الاغاني ١٩ : ٢١

٣) الديوان ٥٧٦

٤) الديوان ٨٩ ، ٦٨٤ ، ٦٩٤

٥) الديوان ٢٦٥ ، ٨٣٠

٦) الديوان ٥٧٣ ؛ وفي الاغاني ان الحادثة هذه كانت على عهد زياد ١٩ : ٢٥

٧) الديوان ٧٧

٨) التالي : ذيل الامالي ٧٦

٩) الديوان ١٨٥ ، ٢١٢ ، ٢٦١ — وارجع الى الصفحة ١٥٢ من هذا البحث .

عليه فيعجزه . على الرغم مما فيه من مظاهر التيه ، والكبر ، والنياشة اذا ما خلا الى مفاخر اجداده ونبل قبيلته .

فخره

ولم يكن ليقف عند حدّ في هذه المفاخر[1] . ولا يتردّد في الفخر بشؤون مضحكة مخجلة :

ابي الشيخ ذو البول الكثير بجانبي فاني ، وعبدالله عمي ، وفضلُ[2]

ونحن بنو النحل الذي سال بوله بكل بلاد لا يبول بها فحلُ[3]

وكأنه يفتخر بالكثرة من كل شيء. فبيته بناء « حَكَمُ السما. » فلا يناله أحد ، وجدّه صعصعة احيى العرب باحيائه الوئيدات ، وابوه غالب معدن الجود ، يقصد الناس داره من اقاصي البلاد ، حتى اذا مات كان قبره ملاذ العفاة وملجأ الخائفين . واخواله بُناة المجد . وقبيلته خير القبائل . فآباؤه لا يقاربهم آباء الخليقة من عبد شمس[4] ،

وان تغضب قريش ، ثم تغضب ، فان الارض ترعاها نَعِمُ ! [5]

هذا اذا كان الفرزدق غير راضٍ عن حكم قريش . فاذا رضي ، تنازل فرفع قريش الى مستواه ، لا كل قريش ، بل عبد شمس وهاشم وحدهما :

ولو سُئلت من كفونا لشمس ، أومأت الى ابني مناف : عبد شمس وهاشم ! [6]

اما هو فخلاصة المفاخر كرماً ، وعلوّ همة ، وشاعريّة . اذا سقى مسافرًا شنّة — اي لبناً ممزوجاً بماء — أعلن ذلك «مفتخراً»[7] . واذا طبخ اللحم نصب قدرًا تضيع فيها الجزور وتطفو ازوارها كالقناة ، ويسع هزيمها بين البيوت كمثوي

---

١) الديوان ٤١

٢) الديوان ٦١٤

٣) الديوان ٦٩٣ - ويروى البيت لابن ذبيان المازني (الديوان ٦١٤) ولعلّ الفرزدق سرقه .

٤) الاغاني ٨ : ١٨١

٥) النقائض ٢٩١ ؛ واطلب الديوان ٨٦٢

٦) الديوان ٦٧٤

الخصوم[١] . واذا شرب خمرة فهي من عهد كسرى[١] . واذا صافن[٢] داليلا في مفازة ، جعل نفسه اكرم من حاتم .[٤]

بيد ان هذا الكرم لم يمنعه الحرص والمسألة ، حتى الإلحاف فيها فكان عمره يتعرّض للامراء والولاة والعُمّال ، فيمدحهم راغباً ، ويهجوهم مهدّدًا حتى يشتروا منه اعراضهم احياء واموالاً . وهو ، ان لم يوفّق الى الكثير ، رضي بالقليل ، فقنع بنحيٍ من سمن مثلاً[٥] ، او بشربة سويق اذا كان عطشان[٦] . وعُرف منه ذلك ، فكان مَن لا يستطيع البطش به ، خاف معرّة لسانه فاتقاه بالعطاء . ذكر المبرّد ان خالد بن صفوان وعد الفرزدق شيئاً فأخّره عنه . فمرّ به الفرزدق فهدّده ، فأمسك عنه حتى جاز . ثم أقبل خالد على اصحابه فقال : ان هذا قد جعل احدى يديه سطحاً ، وملأ الاخرى سلحاً ، وقال : ان عمرتم سطحي ، والّا نضختكم بسلحي[٧] . وهكذا انقضت حياته كحياة الخطيئة ، الّا انه فاقه فساداً خلق وبذاءة لسان .

بداوته

تقدّم ان الفرزدق كان بدوياً متصلاً بالحضر . الّا انه ظلّ شديد التعصب لبدويّته ، كثير الفخر بمآثر آبائه في الاسلام وفي الشرك كذلك[٨] . يهجو آل المهلّب بكونهم لم يعبدوا الاوثان قبل الاسلام ؛ فهم غير عرب[٩] ؛ ويمدح كبار القوم بمفاخر آبائهم في الجاهلية[١٠] . وقد رأيناه يجري في تكريم قبر ابيه ، على

١) الديوان ٨٩٣–٨٩٣
٢) الديوان ١٥ ، وأطلب ٥١٤ .
٣) صافنه الماء : قاسه اياه المثل بالمثل .
٤) الديوان ٨٤١ - ٨٤٢
٥) الديوان ٧٦٩
٦) الديوان ٢٩
٧) المبرّد : الكامل ١ : ٢١٢
٨) الديوان ٤٢
٩) الديوان ١١ ، ٢٥٢
١٠) مثلاً أبان بن الوليد ، الديوان ٦٢

طريقة الجاهليين في إكرام « البيوت » . ثم هو يكرّم قبر بشر بن مروان[١] ، وقبر الهذيل التغلبي بنحره ناقتيه عليهما[٢] . ويتقيّد في كل شيء بمظاهر البداوة ، فيدعو الى الاخذ بالثأر[٣] ، ويفتخر بالضيافة .

ويظهر على كثير من جفاء البدو ، وخشونة طبعهم ، وقساوتهم . حتى يضحك منه اهل الحضر احياناً . ويودّ لو كان وحيبته بعيرَين جَربَين مطرودَين عن منهل القبيلة ، فيقول :

فيا ليتنا كنا بعيرَين ، لا نرد على منهل الّا نُثلَّ ونُذادُ ،
كلانا به عرّ يُخاف قرافه على الناس ، مطليُّ المشافر ، أغلفُ . (٤)

واذاً فلا عجب ان ينفر نساؤه من عشرته ، ويشكو اولاده قلّة حنوّه . ولا يغرنّ المطالع ما يراه من رثائه لأولاده في الديوان ، فهو انما يقوم بذلك جرياً على العادة : فلا يظهر له عاطفة حزن عميق . وسرعان ما ينتقل الى الفخر ، ويعزّي نفسه بموت كبار السادة من تميم[٥] . ثم يسأل السامع المعجب برثائه : أوَ رأيتَ ابني ؟ فيتردّد ويقول : لا . فيقول الفرزدق : « والله ما كان يساري عباءته ! »[٦] .

وقد شاء مرّة ان يرهن ابنه الكبير لَبطة على مبلغ من المال ، فابى اصحاب الحقّ قبول الرهينة[٧] .

هذا ما امكننا تصويره من شخصية الفرزدق بالاستناد الى شعره خاصةً . وقد تُتاح لنا فرصة ندرس فيها زميله جريرًا ، فنعمل على زيادة الشخصيتين جلاء ووضوحاً .

١) الديوان ٢٦٨
٢) الديوان ٢٥٢
٣) الديوان ٤٨
٤) الديوان ٥٥٥
٥) الديوان ٢٦٤
٦) الاغاني ١٩ : ١٢-١٣
٧) ابن خلكان : ك . م . ٢ : ٢٦٦